مكتبة
الأسرة
1999

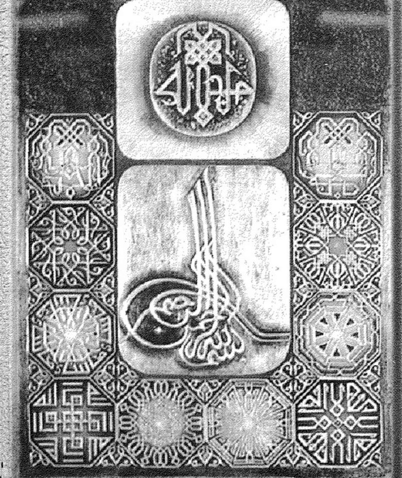
مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

على الجسر

بين الحياة والموت / سيرة ذاتية

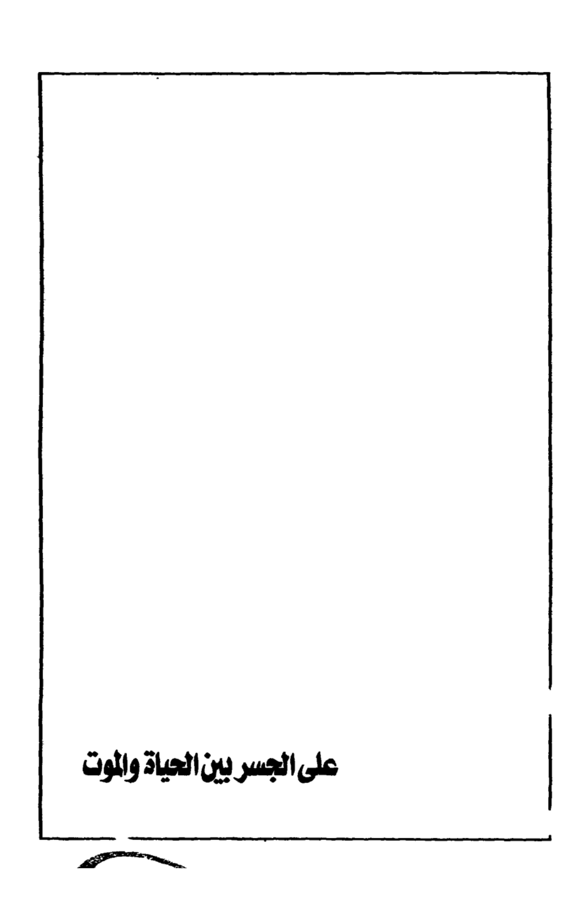
د. بنت الشاطئ



لوحة للفنان: وجيه نخلة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



على الجسر بين الحياة والموت

على الجسر

بين الحياة والموت

(سيرة ذاتية)

د. عائشة عبدالرحمن
بنت الشاطئ



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

على الجسر بين الحياة والموت

د. عائشة عبدالرحمن

بنت الشاطئ

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

على الجسر

« وتجلت فينا ولنا وبنا ، آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذى لا يتعـــدد ، والفرد الذى لا يتجزأ . وكانت قصتنا اسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا ، وهيهات ان تتكرر الى آخر الدهر ! » .

على الجسر ، مابين الحياة والموت
أقف حائرة ضائعة فى اثر الذى رحل :
أطل من ناحية ، فأجده ملء الحياة

وألمح طيفه الماثل ، فى كل من حولى ، وماحولى من معالم وجوّدنا المشترك ، وأتتبع آثار خطاه على دربنا الواحـــد ، دفاقة الحيوية سخية العطاء ..

وأميز أنفــاسه الطيبة الزكية ، فى كلّ ذرة من هــواء أتنفسه ..

وأصغى الى نجواه :
فى الصمت وفى الضجيج
فى سكون الخلوة وفى صخب الزحام

وأطوف بأرجاء عالمنا الرحب الذى ضمنا معا ، فلاأتصور أنه الراحل الذى لايئوب !

***

وعلى الجسر ،
ألتفت الى الناحية الأخرى :
حيث المصير المحتوم لكل حى ، لا عاصم منه ولا مفر
فأدرك بملء وعيى أنه عبره قبلى ..

الى نهاية الشوط وغاية المطاف

وأسترجع ، بيقظة مروعة ومرهفة ، خطوته الأخيرة على المعبر :

اذ يستوعب الوجود كله فى نظرة ثاقبة ،

ويستجمع قواه ليجتاز المرحلة الباقية ،

فى بهاء فروسيته وعزة كبريائه وجلال ايمانه

مناضلا ، حتى النفس الأخير ، عن الحق والخير

ومحتملا ، حتى النفس الأخير ، أمانة الانسان

***

وبملء وعيى كذلك ،

أستعيد المشهد الفاجع للزائر المرهوب ..

ألم بدارنا مقنعا مستخفيا ،

لاتراه عين ولايدركه حس

فلم يتلبث غير لحظة خاطفة ..

أنجز فيها مهمته بأسرع من لمح البصر

ثم انطلق بعدها يتابع جولته المرسومة فى لوح القدر لحصاد الآجال ..

بعد أن ترك بصمته على ركن دارنا

وأسدل قناعه الحزين على الجسد الراقد :

ملاءة رقيقة بيضاء ...

ما أهونها حاجزا بين الموت والحياة !

وان لم يعرف الأحياء ما يدانيها كثافة وصلابة ، وغلظا وثقلا ..

***

وأتتبع المشهد حتى نهاية الرحلة بمقبرة القرية ..
في الحفرة التي لبثت هنالك مفتوحة تنتظر ،
ريثما واروا فيها جثمانه الدافيء
ثم سدوها بحفنة من طين وحصى ورمال ..
هي كل مابيني وبينه حين ألم به زائرة ..
وهيهات هيهات المزار !..

***

أستعيد هذا كله ،
وأستحضره وأسترجعه ، بيقظة واعية ..
فأترنح على الجسر :
ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى
ويختلط في سمعي صدى النعي المصمي بنجوى الطيف الماثل ..

وتمتزج في صدري ريح العدم ، بعبير الأنفاس الطيبة للراحل المقيم

ويتصادم في وجداني نشيج الباكين وأنين المحـزونين وتأبين الراثين ، ودعاء المعزين ، بايقاع النغم الشجي الساحر للصوت الحبيب ..

وتتزاحم على الأفق من حولي مواكب المشيعين والمودعين ، متداخلة في مشاهد حركاته ولفتاته ، وجولات نضاله ومواقف بطولته ، ومجالس أستاذيته وندوات مدرسته !

وتتماحى الحدود والفواصل :
بين الحاضر المفجع ،
والماضي السعيد الحافل ،

والغد المحجب في ضمير الغيب ، المطوى في غيابة المجهول ..

وتتداخل الأبعاد والآماد ،

حيث أقف على الجسر ، مابين الحياة والموت

***

وما باختيارى أن تبطىء خطواتى عليه ..

ولا بارادتى تخلفت عمن عبر

ولا علم لى بموضع قدمى فى الخطوة التالية

قصارى ماأعلمه هو أن «كل نفس ذائقة الموت»

«وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت»

***

والى أن يحين الأجل ..

سأظل معلقة بين الحياة والموت ،

لا أدرى الى أيهما أنتمى ، وعلى أيهما أحسب ؟

وملء مسمعى صدى النعى مختلطا بنجوى الطيف الماثل ..

وعلى دربنا المتألق بنور حبه وكرم سجاياه ، تلوح بصمة الزائر الرهيب الذى تسلل الى دارنا خفية فى وضح النهار

فلم يتلبث غير لحظة خاطفة ، ثم مضى عنا الى حين ..

وفى أرجاء دنيانا التى تزدهى بملامحه وتزهو بآثاره وتتشبث بذكراه ،

تبدو معالم الجسر الممارد العجيب الممتد بين الوجود والعدم ..

يتحدى أعتى القوى وأمنع الحصون

وتتطاول أبعاده فتطوى الآفاق من بر وبحر وهواء وفضاء ..

وان بدا للغافلين من تهاويل الأحلام ، وأفانين الوهم والخيال ..

* * *

الى أن يحين الأجل ،
سأبقى محكوما على ،
بهذه الوقفة الحائرة على المعبر
ضائعة بين حياة وموت
أنتظر دورى فى اجتياز الشوط الباقى ،
وأردد فى اثر الراحل المقيم :
عليك سلام الله ان تكن
عبرت الى الأخرى
فنحن على الجسر ..

مصر الجديدة
مارس ١٩٦٦

قبل أن نلتقي ..

الشــعر

على دربين متباعدين ،
بدأت خطواتنا من قبل أن نلتقى
ولم يكن هناك أى احتمال للقاء ..
فأحد الدربين يمضى بمعزل عن الآخر ..
دون أن تبدو بينهما على مد الأفق نقطة اتصال .
لا فى الحقيقة والواقع ،
ولا فى أحلام اليقظة ورؤى المنام .

تباعد مابيننا زمانا ،
وتباعد بيننا كذلك المكان ..
وحين بدأت أخطو على دربى ،
كان هو قد قطع شوطا طويلا فى طـريق لايحتمل أن أطرقه ،
وليست لدى أدنى فكرة عنه ،
ولو على سبيل التصور أو الوهم ..

وهناك ،
على دربه البعيد عن مهد مولدى ،

وقبل أن أخرج الى الدنيا ..

كان هو قد بدأ يقيم بناء حياته

دون أن يخطر بباله احتمال لتغيير جـوهرى أو تبديل وتعديل ..

ودون أن يتمهل فى انتظار مالم يكن يتوقع

وهكذا بدأنا :

تفصلنا آماد وأبعاد ،

كل فى طريقه وعلى دربه ..

لايدرى عن الآخر شيئا من قريب أو بعيد .

ولعل أحدهما لو سئل عن الثانى ، لهز رأسه متسائلا فى حيرة وعجب

من يكون ؟

***

كيف سارت بى الحياة قبل أن ألقاه ؟..

فى ذاك الفصل من قصتى ، أعود الى طفولتى الباكرة ، فأسترجع من ذكرياتها مالم تطوه الأيام والليالى فى متاهة النسيان ،

وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سـياق الفصول التالية من قصتنا ، غير أنى أريد لألتقى بتلك الصبية التى حملت ملامحى الأولى ، وأميز فى آثار خطاها ، تلك المرحلة التى أسلمتها الى دربه من حيث لاتدرى !

***

وأنا أكتب هذا ، بعد أن تمت القصة فصـولا ، على مسرح الدنيا ..

ولست أدرى ما اذا كنت فيما أروى من فصلها الأول ، متأثرة بما أعرف من بقيتها ..

غير أنى أحاول قدر ماأستطيع ، أن أستعيد ماضى كما كان ، حريصة على ألا تتداخل المشاهد وتختلط الذكريات ، في قصتنا التى ماسمع الزمان بمثلها من قبل ..

وهيهات أن تتكرر أبد الدهر ..

حين بدأت أعى خطـواتى على الدرب ، كنت فى ملعب طفولتى على شط النيل بمدينة دمياط العريقة ، حيث يقوم بيت جدى لأمى «الشيخ ابراهيم الدمهوجى الكبير» مطلا على النهر ، عتيقا شامخا تضرب أسسه الصخرية فى ماء النيل ، ويمتد الأفق أمامه ، من ناحيتى الشمال والغـرب ، فسيحا رحبا الى غير مدى ..

وعلى حافة النهر ، أمام الدور الأرضى ، شرفة بعرض البيت ، تفضى من جانبيها الى الماء بسلالم من حجر ، تتكشف درجات منها تباعا عندما ينخفض مستوى النهر فى موسـم التحاريق ، ثم تغمرها مياه الفيضان فلايكاد يبدو منها غير أطرافها العليا ..

والمدخل الشمالى للشرفة ، يفتح بباب على رصيف عريض ممتد الى مسافة طويلة ، مرسى للسفن الشراعية حين تئوب من رحلاتها عبر البحـر المتوسـط ، الى بلاد الشام وقبرص والأناضول ، فيشدها الملاحـون بسلاسل الى أوتاد حديدية مثبتة على الرصيف ، ويمضون بعد تفريغ حمولتها لقضاء أيام مع أهلهم بالمدينة وشطوطها .

أما المدخل الآخر للشرفة ، فكان بابه يفتح على منطقة من الماء قريبة الغور ، محجوزة بجدران خشبية ساترة ، اعتادت

سيدات الأسرة الاستحمام فيها ، اذ تتحول فى موسم التحاريق الى حمام بحر لحريم البيت ، عندما يجور الماء المالح على النيل الى مسافة أميال من المصب ، يبدو النهر خلالها كأنه خليج ممتد من البحر المالح .

وخلف الشرفة ، قاعة كبرى لاستقبال الضيوف والتجار المتنقلين مابين مصر والشام ، تعلوها طبقات ثلاث ، بينها أدوار مسحورة ، يقيم فيها معتوقو الجد ، وقد بلغوا من الكبر عتيا فما عادوا يستطيعون أن ينفصلوا عن البيت الذى أفنوا فيه شبابهم ، ولا كان فى استطاعتهم أن يبدأوا حياة جديدة بعد أن نالوا وثيقة العتق من جد الأسرة قبيل وفاته .

وما كنت فى تلك السن الغضة أدرك شيئا عن مأساة الرق ، وانما فتحت عينى وأناأرى «داده حليمة» ترعى أطفال الأسرة ، و «العم مبروك» يقوم على خدمة الضيوف ويقضى حاجات البيتالكبير من السوق ، حتى مات فى شيخوخته العالية فدفن فى جانب منعزل من مقبرة العائلة ، خصصته لمعتوقى جدها الشيخ ، وأخذ ولده مكانه لمدى سنين ، ثمخرج الى الدنيا يلتمس فرصته ، وبقيت «داده جليمة» ترعانا فى شيخوختها الواهنةوتسلينا بحكايات وعتها منتاريخ الأسرة .

***

فى الطابق الثانى من هذا البيت القديم ، كان منزل جدى أمى ، وقد أدركتهما بعد أن علت بهما السن ، فكان على أمى أن ترعاهما موزعة وقتها وجهدها بين بيتنا الخاص ، وبين منزل الجدين .

واعتدت أن أصحبها الى البيت الكبير كل يوم ، فتتركنى «لداده حليمة» تشاغلنى بحكاياتها ، بعد أن توصيها ألا

تدعنى أغيب عن بصرها • غير آنى سرعان ماكنت أفلت من العجوز الطيبة بحيلة أو بأخـرى ، وأتسلل الى النهر لألهو وألعب مع صواحبى من بنات الجيرة ، فاذا حان موعد انصراف أمى الى بيتنا ، تعللت برغبتى فى البقاء لخدمة الجدين •• وانتظرت حتى تنصرف أمى ، لأعود الى ملعبى على شبط النهر لا أبرحه حتى يحين المساء •

وكثيرا ماكنت أجدنى وحـدى مع الفضـاء الطليق ، فيطيب لى أن أتخـذ لى مجلسا فى احـدى السفن الشراعية الراسية على الشط ، أصغى الى نجوى النهر ، وأجتر ماحكت لى العجوز الطيبة من ذكرياتها عن البيت الكبير • ولم يكن يشـوب متعتى سـوى هاجس من القلق ، أن تعلم أمى أننى هناك ، وقد كانت تبدو مذعـورة كلما سمعت عـرضا أنى تسللت الى النهر ، واذ أعيـاها أن تصـدنى عنه بالزجن والتأنيب ، احتالت على بتخويفى بحكايات رهيبة عن أفاعيل جن الماء التى تخرج أحيانا من كهوفها السـفلية فى قرار القاع ، وتطفو قريبا من السطح ، تلتمس صيدا لها من أبناء الانس ! وروت لى فيما روت ، حوادث بعينها عمن سحبتهم جن الماء على غـرة ، وغاصت بهم الى القـاع وحكمت عليهم بالعيش هناك ، فما عادوا الى دنيانا بعد ذلك قط •

وأحسب أننى أدركت أنها انما تتفنن فى اختراع تلك الخرافات الرهيبة لكى تصدنى عن النهر ، غير أن الذى رابنى من أمر أمى ، أنها كانت تتحدث عن أفاعيل جن البحر بصوت يفيض لوعة وشجنا ؛ وربما غلب عليها الانفعال فلم تملك أن تمسك دموعا كانت تترنح فى مقلتيها ، حتى كدت أصدق كل ماكانت تحكيه ، وطاردتنى فى منامى أحلام مفزعة،

كنت أشهد فيها جن البحر يطفو النصف الأعلى منها على الماء ، آدمية الخلقة ساحرة الجمال ، وتتلبث هنالك فترة فى انتظار الصيد . حتى اذا ظفرت به سحبته ودارت دورة لتغوص فى الماء، وعندئذ يبدو لى النصف الأسفل من جسدها ، بزعانفه وحراشيفه وذيله !

وهجرت ملعبى حينا ، شعرت خلاله بالوحشة والتعاسة، وكنت كلما تمثلت مجلسى على ثبج الماء ، وسمعت صبية الحى وهم يتواثبون الى الشط ، تساءلت عما اذا لم يكن لهم أمهات مثل أمى ، يعرفن مثل ماتعرف عن أفاعيل جنيات البحر ، ويحاولن حماية الصغار منها !؟



حتى عرفت من «داده حليمة» سر المأساة التى روعت أمى فى صباها ، فشحنت وجدانها بالخوف من النهر :

قبل أن أولد بسنين ، بل قبل أن تشب أمى وتتزوج ، نزلت والدتها الى شط النهر ذات صباح ، ثم لم تعد بعد ذلك قط !

سحبتها أذرع الموج الهـادر ، وتاهت صيحة استغاثتها فما كاد أهلها يميزونه من هدير الماء ، حتى كانت قد غاصت الى القاع !

ومن عجب أن علمى بهذه المأسـاة وما أعقبها من ذيول فاجعة ، لم يقهر حبى للنهر ! بل لعله شدنى اليه بوثاق لم يكن فى طـاقتى أن أتحـرر منه ! ومالبثت أن عـدت الى مكانى الذى هجرته حينا ، أحاول أن أتمثل منه المأساة التى لم أكن من شهودها ، وخيل لى ، أننى أستطيع أن أصغى فى هدير الموج الى صدى بعيد من صوت انسى يتصاعد من قاع النهر ، وأن أميز فى مياهه تلك الدموع التى ذرفتها أمى حين وقفت فى الأمس البعيد على الشط تنادى والدتها الغـريقة وتضرع الى النهر أن يردها لها فيرتد اليهـا صـدى ندائها وضراعتها ، مجهدا ممزقا ضائعا ..

وأدركت على صغر سنى ، سر الخوف الذى كان يجتاح

وجدان أمى كلما أحست حبى للنهر وتعلقى به . وأدركت كذلك سبب ارتباطها العجيب بجديها ، وقد عاشا بعد المأساة يجتران ذكرياتها المشحونة بالأسى واللوعة ، ويطلان صباح مساء على مسرحها الأليم !

ومن ذلك الحين ، زاد تعلقى بالبيت الكبير واتجهت اليه بكل عواطفى الغضة ، ففيه تربت أمى بعد غرق والدتها ، وفيه يقيم جداها الثاكلان اللذان تشبثا بها صورة حية لفقيدتهما ، وعلى حافة النهر هناك كان المسرح الذى شهد مأساة غريقة تربط ثلاثة أجيال من الأسرة ..

***

على ذلك الأفق الشجى الحزين ، تفتح ادراكى وأنا أخطو الى عامى الخامس ..

ومن تلك الكأس المترعة بالشجن المر والحنان الدافق والعاطفة المرهفة ، عرفت مذاق الحياة أول ماوعيت ..

ومن تلك الشخوص الحية التى تقف بالأطلال ، بدأت ألتقط خيوطا خفية من ذيول المأساة ، ثم أتسلل الى النهر كلما وجدت سبيلا الى الافلات من الرقابة المفروضة على ، فأمضى الساعات الطوال صامتة على الشط ، أنسق ماجمعت من خيوط وأحاول أن أنسج منها ماغاب عنى من مشاهد ، فى تأمل مستغرق وشجو مريح !

ودون أن أدرى ، كان والدى قد بدأ يخطط لى طريق الحياة ، فى ذلك الوقت الذى شدتنى فيه جواذب لاتقاوم ، الى النهر بكل مايلم به من أرواح وأشباح ، والى البيت الكبير بكل من فيه من أشخاص وأطياف ..

ووالدى لم يكن من أبناء دمياط ٠

وانما ولد فى قرية «شبرا بخوم» من ريف المنـوفية ، وأمضى بها طفولته يحفظ القرآن الكريم ويجوده ، ثم أغراه عالم القرية «الشـيخ يوسف شـلبى الشبرابخومى» بطلب العلم ، فنزح الى العاصمة مع عدد من رفاقه المجـاورين ، وتابع الدرس حتى نال شهادته التى عين بها مدرسا بمدرسة دميـاط الابتـدائية الأميرية للبنين ، قبـل أن أولد ببضع سنين ٠٠

ويقـال انه حين وفد على البلدة ، لفت الأنظار بأناقة ملبسه ومرونة تفكيره ، وحيوية شخصيته ، غير أنه مالبث أن تطور تطورا حاسـما ، متـأثرا ، فيما أرجح ، بالميراث الروحى للبلدة العريقة ، تتألق ذكرياته فى مساجدها العامرة التى تطيف بالبلدة من أطرافها ، مثوى لشيوخ من التابعين المجاهدين ، وأولياء الله الصالحين ، رضى الله عنهم :

ففى أقصى الطرف الشرقى ، على حافة بحيرة المنزلة عند غيط النصارى ، يقوم ضريح «سيدى شطا» التابعى ، يقابله

عند أقصى الطرف الشمالى ، على حافة البحر المتوسط ، ضريح «سيدى الجربى» .

وعنـد أقصى الطرف الغـربى ، ضريح «الشـيخ على الصياد» يقابله من ناحية الجنوب ، ضريح سيدى «الشـيخ المظلوم» .

وعند باب المدينة البحرى ، يقوم جامع «الشيخ المدبولى» الذى ظل لمدى قـرون ، مدرسة لعلوم الدين ، الى آن أنشىء المعهد الدينى فى «جامع البحر» .

وكانت أشـعة من السـنا ، تفيض من تلك المسـاجد العامرة والأضرحة المباركة ، فتضفى على أفق البلدة العريقة جوا من الجلال الروحى ، هو ماأظله جذب والدى الى طـريق التصوف ، فأوغل فيـه الى المدى الذى جعله ضـاق بالتعليم العصرى فى المدرسة الابتدائية ، فسعى سعيه حتى نقل منها الى المعهد الدينى فى جامع البحر ، حيث أخذ مكانه بين شيوخ المعهـد المبجـلين ، فى تلك البيئـة المحـافظة ذات التراث الروحى ..

وتزوج أمى ، ولعل الذى زكاها لديه ، دون غيرها من بنات دمياط ، أنها حفيدة الشيخ الدمهوجى الذى كان شيخا للجامع الأزهر ...

***

وسمعت فيما سمعت من أخبار الأسرة قبل مولدى ، أن أبى تمنى عندما حملت أمى جنينها الأول ، أن يهبه الله غلاما زكيا يتلقى ميراث البيت من علوم الدين ، فلما بكرت أمى بأنثى ، تلقاها بما يليق بمثله من رضى بما أعطى الله تعالى حتى اذا حملت بى أمى ووضعتنى بنتا ثانية ، لم يضجر بى

والدى ، وتلك ارادة الله ، بل وهبنى للعلم منذ وضعتنى أمى فى المهد ، وسمانى «عائشة» تفاؤلا باسم أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكنانى «أم الخير» ٠

ولست أدرى ما اذا كان والدى قد بدأ يعدنى لما وهبنى له ، فى تلك المرحلة الأولى التى يفوتنى وعيها ، اللهم الا بعض ذكرى تائهة مبهمة لأوقات كان والدى ينتزعنى فيها من ملعب حداثتى ، ويلزمنى من قبل أن تفك عنى تمائم الصبا، صحبته فى مجلسه بالبيت ، أو فى مكتبه بجامع البحر ، وكان يسميه الخلوة ٠ ولعلى التقطت فى تلك المرحلة المنسية ، بعض الآيات والسور القصار ، من طول ماسمعته يتلو القـرآن الكريم ٠ والتقطت معها كلمات مما كان يتذاكره مع زملائه وتلاميذه من علوم الاسلام ٠٠

ولعلى كذلك تلقيت مبادىء القراءة والكتابة فى ذلك العهد الذى يسبق وعيى ، غير أن دراستى الجادة المنظمة ، لم تبدأ الا صيف عام ١٩١٨ وأنا فى نحو الخامسة من عمرى !

***

استقبلنا ذلك الصيف البعيد ، وأبى يستعد للرحيل بنا الى قريته «شبرابخوم» لقضاء عطلة الصيف مع أهله هناك ، على مألوف العادة فى كل صيف كما سمعت ٠٠

وشعرت بالضيق النفسى تجـاه هـذه الرحلة ، لفرط شغفى بالنهر وتعلقى بالبيت القائم على شطه ٠ وقد تضاعف ذلك الضـيق حين لاحظت على أمى أنهـا تضيق كذلك بتلك الرحلة الموسمية المفروضة عليها ، حيث تقضى ثلث العـام تقريبا ، بعيدة عن جـديها أحـوج مايكونان الى رعايتها ، وتعيش فى بيئة ريفية تختلف تماما عن بيئتها الحضرية التى ألفتها وشبت فيها ٠

غير أن السفر كان يعدنى مع ذلك بطريف جديد ، فما لبث احساسى بالضيق أن توارى فى أعماقى وغاب ، بمجرد أن عبرنا النهر فى (الفلوكة) من مرساها عند بيت جدى ، الى محطة السكة الحديدية المواجهة للبيت ، على الضفة الغربية للنهر • ومن هناك ركبنا قطار الصباح ، وانطلق يجرى بنا وأنا مفتوحة العينين ، أطل من نافذته على ما بدا لى يومئذ من عجيب المشاهد وطريف المناظر ، وكأنى أتفرج من الثقب السحرى لصندوق الدنيا ، أو صندوق العجب كما كنا نسميه ••

وفى محطة بنها ، نزلنا من القطار الكبير ولبثنا على الرصيف فترة طالت ، حتى جاء قطار آخر ضئيل زرى المنظر ، سار بنا متعثرا وئيدا حتى حطنا فى بلدة «ميت بره» حيث كان أخوال أبى فى انتظارنا ••

وقد استرحنا فى ضيافتهم بقية النهار ، وفى المساء أسرجوا لنا حمارين ، حملانا عبر درب ضيق مترب وسط الحقول ، الى دار أبى فى القرية •

وكان أهل الدار قد تجمعوا لاستقبالنا ، فلما نقلت بصرى بينهم ، جذبنى اليهم نداء الدم ، وان بدوا لى فى اللقاء الأول غرباء • والرحلة اليهم كانت طويلة شاقة ، والسفر قطعة من العذاب ، الا أنى تمهلت عند مدخل الدار حتى انتهت تحيات الاستقبال ، مشوقة الى أن أنطلق الى الخارج كى أكتشف ذلك العالم الجديد •

ودنوت من طفلة فى مثل سنى ، من بنات عمى ، فرجوتها أن تصحبنى فى جولة بالقرية ، لكنها أمهلتنى حتى يصبح الصباح ، اذ ليس من المسموح لنا أن نخرج من الدار وحدنا

بعد غروب الشمس ! وفيما كنت أحاول اقناعها بمصاحبتى ، خرج جدنا من منظرة الرجال ، فأنكر وقوفنا بالدهليز وقد حان وقت العشاء ٠

وخطوت فى بطء الى فناء الدار ، حيث لمحت أكداس الحطب مكومة قرب فرن عجبت لموضعه داخل البيت ، ثم ازداذ عجبى وأنا أرى المواشى فى زريبة مفتوحة على الفناء ، والى جانب الزريبة صف من القاعات المظلمة ، سألت عنها فقيل لى انها مخصصة لنوم العائلة فى الشتاء !

ونادتنى أمى من فوق ، فأسرعت اليها لأراها قد أخرجت من أمتعتنا ملاءات نظيفة بيضاء ، فرشتها على سرير من حديد أسود بأكر من نحاس صدىء ، فى قاعة فسيحة مفروشة بحصير يبدو جديدا ٠ وفى قاعة جانبية ، أعدت لنا حشايا جلسنا فوقها حول صينية عشاء يحملها كرسى قصير من الخشب ، وفى زاوية من القاعة كان هناك طست وابريق من نحاس للاغتسال ٠ وفوق قاعدة النافذة البحرية ، وضعت صينية مستديرة فيها ثلاث قلل للماء ، غطتها أمى بقطعة من شاش أبيض ٠

ذلك كان كل أثاثنا فى دارنا الريفية ٠٠

وظننت أنى لن أستطيع النوم ، مع ذلك التغيير الطارىء على نسق حياتنا المألوفة فى الحضر ، غير أنى لم آكد أرقد فى حضن أمى ، حتى نمت ملء الجفون ، بحيث لم أشعر بوالدى حين طلع الى مسكننا ، بعد انتهاء السهرة فى منظرة الرجال ٠٠

***

وأصبح الصبح ، فازدردت طعام الافطار على عجل ، وأنا

أترقب اللحظة التى يخرج فيها أبى ، لكى أنطلق مع «أمينة» بنت عمى ، فى الجولة المؤجلة من المساء الذى فات ..

غير أنى فوجئت بأبى يصحبنى الى كتاب القرية ، حيث أسلمنى هناك الى «سيدنا الشيخ مرسى» ليحفظنى القرآن الكريم ، وانصرف بعد أن اتفق على أن أنتظم فى الكتاب ، ستة أيام من الأسبوع ، من مطلع الشمس الى قرب صلاة العصر !

وأذكر أن سيدنا ترفق بى فى اليوم الأول ، فلم يرهقنى بتلاوة أو كتابة ، وانما اكتفى بأن أجلسنى الى جانبه على حصير خشن ، حيث أمضيت الساعات الست أحدق فى زملائى الصغار وهم يتتابعون على سيدنا واحدا بعد الآخر ، فيتلو كل منهم اللوح الذى حفظه ، ويكتب اللوح الجديد . فاذا تعثر فيما يتلو أو أخطأ فيما يكتب ، زجره الشيخ مرة ومرتين ، فاذا كانت الثالثة ،أمر غلاما فأمسك بساقى الصبى المخطىء، وأهوى سيدنا على قدميه ضربا بعصا مفلوقة من طرفها !

يومها ، رجعت الى أمى مخطوفة اللون والقلب ، فتلقتنى فى حضنها بحنان ، وهى تدعو الله أن يفتح على ، ويعيننى على احتمال التجربة فى شدتها الأولى ، وقد خفف عنى بعض الرعب ، حين سمعت أمى تؤكد لى أن سيدنا لن يضربنى أبدا بفلكته !

وعكفت أمى بقية يومها ، تخيط لى كيسا من القماش أحمل فيه لوحى الصفيح وقلمى الغاب ، وتجهز بعض فطائر جافة ، أتبلغ بها فى ساعات الكتاب ..

***

ولمدى شهور الصيف الأربعة ، كانت ساعات الصباح

تحبسنى فى الكتا ب، وبقيت لى سويعات الأصيل أنطلق فيها الى الحقول ، وقد أحببت القرية وأهلها ، وطاب لى العيش فيها على خشونته ، فكان ذلك مما هون على ، وحشة فراقى لبلدتى دمياط ٠

وكنت أتصور ، اننى بعودتى اليها بعد انتهاء العطلة الصيفية ، أرجع الى ملعبى على شط النهر ، غير أن والدى كان قد قرر أن آبدأ من ذلك الموسم ، تعلم المبادىء الأولية لعلوم العربية والاسلام ، وألزمنى أن أصحبه الى مكتبه فى جامع البحر ، حيث أعكف على حفظ مالقننى من دروس ، فى الأوقات التى يكون فيها مشغولا بالتدريس لطلابه ٠

***

وتكررت رحلتنا الى القرية فيما تلا من عطلات الصيف، حيث أتممت حفظ القرآن الكريم ، الى جانب ماكنت أتلقى من دروس ، أثناء المواسم الدراسية لمعهد دمياط فى الخريف والشتاء ٠

وبقدر ما ازدهانيأن أتعلم مالايتاح لغيرىمن صواحبى وأترابى ضقت نفسا بما فرضه والدى على من قيود صارمة ، تحبسنى طول ساعات الصبح لتلقى الدروس وحفظها ، ثم تلزمنى فى ساعات الأصيل حضور مجلسه مع شيوخ المعهد الدينى على حين كانت صواحبى يمرحن لاهيات على ملعبنا عند شط النهر ٠

ثم مالبثت أن ألفت هذه القيود ، أو لعلى ارتحت باليأس من الخلاص منها ، فأقبلت بكل طاقتى على العلم ، وقد استثار زهوى ماكنت أسمع من زملاء أبى الشيوخ ، عن أهليتى لما وهبت له من علوم الاسلام ٠

وأرضى غرورى ، أن أجدهم يصغون فى طرب وعجب ، الى تلاوتى المجودة للقرآن الكريم ، وانشادى لما حفظت من قصائد الصوفية !

وكنت أزهو على أترابي فى المدينة بحفظى للقرآن

الكريم ، فاذا سافرت الى القرية ، حيث لا مجال للزهو بما يحفظ مثله أكثر صبية الفلاحين ، عمدت الى المباهاة بما تلقيت من دروس العربية والاسلام .

وقد كلفنى ذاك الزهو (علقة ساخنة) من جدى لأبى :

كان قد لمحنى ذات صباح ،خارجة من الدار قبيل مطلع الشمس ، فلما سألنى عن وجهتى أجبت بأنى أبتغى أن أجيء لأمى ببعض أزهار الليمون من بستاننا بحرى القرية .

وتردد لحظة قبل أن يأذن لى فى الخروج ، وأمرنى أن ألقى نظرة على أشجار الخوخ لأرى كيف حالها ..

وانطلقت أعدو وأنا لا أكاد أصدق أننى مطلقة السراح، فلما وصلت الى البستان ــ ولم تكن مساحته تتجاوز فدانين ــ غمرنى شعور الارتياح المنعش ، اذ أستقبل شروق الشمس فى ذلك الخلاء الأخضر ، وأنشق عبير الصباح معطرا بشذى الأزهار ..

ونسيت جدى وسؤاله عن حال الخوخ ، حتى اذا شارفت دارنا فى طريق العودة ، تذكرته بغتة فلم أدر بم أجيب .

وقاومت خوفى ، بأنى قد أستطيع التسلل الى غرفتنا العلوية دون أن يشعر جدى بعودتى ، غير أنه لمحنى من مجلسه بالمنظرة المفتوحة على دهليز الدار ، ونادانى ليسمع منى :

كيف حال الخوخ ؟

قلت فى ارتباك : عال !

فعاد يسأل عما أعنى ، فلم يسعفنى ذهنى بجواب ، سوى : ضارب الى الحمرة !

واذ هم بأن يضربني ، انطلق لساني بالكلمة التى كان ينبغى أن أقولها : محمر ••

وعـدوت الى غرفتنا وثبا ، ألتمس الأمان بين ذراعى أمى ، وصوت جدى يعلو ورائى ساخرا بما حسبه تعالما منى وتفاصحا :

ــ هيه ! دى آخرة عيشتك فى الحضر •• مانابك من غربتك الا عوج ضبتك ••

وأذكـر أننى لبثت أياما أطيـل التفكير فى تعبيره عن حياتنا فى دمياط بالغربة ! فمبلغ علمى ، حتى ذلك العهد ، أن موطنى الأصلى هو هذه البلدة الساحلية الجميلة التى كانت لمولدى مهدا ولطفولتى ملعبا • وفيها ولدت أختى ، وأمى ، وكل أهلها من قبل • وبها المقر المستديم لعمل والدى منـذ بدأ التدريس • وليست القرية ــ فيما تصورت ــ الا منطقة اصطياف لنا ، بديلا عن رأس البر مصطاف أهـل بلدتى • ومهما يكن ارتباطى الوثيق بالقرية ، فلن يبلغ مبلغ حبى وولائى لأول أرض مس جلدى ترابها الطيب •

وماشعرت قط ، أن أمى طاب لها المقام فى الريف بعيدا عن أهلها ، بل كنت أسمعها فى وحدتها تشدو هامسة بأغنيتها المفضلة :

زورونى فى السنة مره
حـــرام تنسـونى بالمره

فأحس فى صوتها شجو الحنين وشجن الغربة
فما لجدى يقول اننا فى تلك المدينة الغالية غرباء !
ذلك ما لم أقتنع به قط •

وان كنت تعلمت من ذلك الدرس القاسى الذى ألقـاه على ، أن أتحـاشى التفاصح فى القـرية ، وأتجنب التشدق بالألفاظ الفخمة التى لاتدور على ألسنة القوم هناك ، كيلا يظنوا بى أنى أتعالم عليهم وأغض من أميتهم !

بل لقد تعمدت كذلك أن أتكلم بلهجة ريف المنوفية ، كى أتقى سماع عبارة «مانابك من غربتك الا عوج ضبتك» بما تثير فى وجدانى من احساس بجرح انتمائى الى البلدة الجميلة الطيبة ٠

● ● ●

واذا كنت قد حرمت فى القرية ، من يومئذ ، لذة ألزهو بما حصلت من مبادىء العلم ، فقد بقى لى فى دمياط مجال الزهو بما أتيح لى دون لداتى وصواحبى ، من حفظ القرآن الكريم والحـديث الشريف والمدح النبـوية والأناشـيد الصوفية ٠٠

الى أن عدنا من رحلة الصيف حوالى عام ١٩٢٠ ــ وقد كانت مشحونة بأصداء الثورة ــ فلم نكد ننفض عنا غبار السفر الطويل حتى سارعت الى ملعب الاصحاب على شط النهر ، فألفيته فى عز النهار خاليا موحشا !

ومضى النهار كله وأنا مطلة على الشط من النافذة البحرية في بيت جدى لأمى ، دون أن ألمح لأترابى أثرا ، وكأنما ابتلعهن الماء أو سحبتهن جن النهر الى القاع !

وسعيت فى الأصيل الى دور الحى ، أسأل عن الخبر ، ففوجئت بأن الصغيرات قد بدأن الدراسةالمنتظمة فى «مدرسة اللوزى الأميرية للبنات» !

وتطوعن جميعاً فعرضن على «أزياءهن المدرسية الأنيقة» والكتب المصورة والكراسات المتنوعة والأدوات المدرسية التى وزعت عليهن .

وطاب لهن كذلك ، أن يسمعننى حديثا عجبا عن «الأبلوات اللطيفات ، وقاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور ، وقاعة المائدة الفسيحة المنسقة ، وعن «داده أم حبيبة» التى تبيع لهن الحلوى فى فترات الفسح !

ورجعت الى البيت وأنا مشغولة البال بما سمعت ،

ولاحظ والدى على ، أننى لا أكاد ألقى سمعى الى مايلقى على من دروس ، فلما سألنى عمـا بى ، تشجعت فصـارحته بما يشوقنى من الذهاب الى المدرسة مع بنات الجيرة ..

فكأننى نطقت كفرا !

وجاءنى الرد ، حازما حاسما :

«ليس لبنات المشـايخ العلماء أن يخـرجن الى المدارس الفاسدة المفسدة ، وانما يتعلمن فى بيوتهن» .

وأمرنى فتلوت سورة الأحزاب الى قوله تعالى :

«يانسـاء النبى لستن كأحـد من النسـاء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليـذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » .

ولم أسأل والدى :

ـ وهل أكون من بيت النبوة ؟..

لعلمى انه كان يعتز بنسبه الشريف ، ويحتفظ بسلسلة آبائه الى جده الامام الحسين ، ولد الزهراء رضى الله عنهـا وعنه ..

وانما أردت لأسأله :

ـ وهل بلغت مبلغ النساء ؟

ثم تهيبت ، فلذت بالصمت ....

ومضت أشهر ذات عدد ، وآنا آتبع بنات الحى بصرى وقلبى فى رحلتهن اليومية الى المدرسة ، ثم آخلو فى ليـالى المسهدة الطوال الى الهم والحسرة ·

وزهدت فى الدنيا بقدر مايحتمل عمرى الغض ، وبان على من الذبول والشرود والانطواء ماجعـل آمى تفزع الى جدها ـ الشيخ محمد الدمهوجى ، رحمه الله ورضى عنه ـ تلتمس منه النصيحة والرأى ، فى موقفها الحائر الصعب بين حرصها على ألا تتدخل فيما يريد لى أبى ، وفزعها من عواقب ماأكابد من قهر وحرمان ·

وتدخل الجد رحمـه الله لحسم الموقف ، فمازال بوالدى حتى انتزع موافقته المكرهة على التحاقى بمدرسة اللوزى للبنات ، بشروط ثلاثة :

ـ ألا دخل لوالدى اطلاقا ، بأى طلب للالتحاق آو اجراء من اجراءاته ، أو أى شـأن يتصل بالمدرسـة من قريب أو بعيد !

ـ أن أتابع دراستى الدينية فى البيت ، دون آن يترتب على دخولى المدرسة ، أى تهاون أو تقصير فى دروسى الخاصة·

ـ آن أنقطع نهائيا عن الخروج الى المدرسة ، بمجرد آن أشارف سن البلوغ !

وفرجت ، وكنت أظنها لاتفرج !

وأصبح جدى فسعى سعيه حتى ألحقنى بالمدرسة بعـد مشقة بالغة ، اذ كانت السنة المدرسـية على وشك انتهاء · وقدم الأوراق المطلوبة ، بوصفه نائبا عن ولى آمرى !

وكان المفروض آن ألتحق بالسنة الأولى ·

ومازلت حتى هذه اللحظة ، أذكر أن يومى السعيد الأول بالمدرسة ، كان يوم خميس على التحـديد ، وأذكر الحجرة الدراسية التى دخلتها فى نهاية الجناح الشرقى للمبنى الفخم

بل مازلت أتذكر كذلك المقعد الاضافى الذى جىء به فوضـع لى أمام المقعد الأخير من الصف الأول ، حيث جلست أؤدى امتحان النقل الى السـنة الثانية مع تلميذات السـنة الأولى ، ولم يكن قد مضى على دخولى المدرسة سوى الدقائق المعدودات التى استغرقها طريقى من «مكتب حضرة الناظرة» الى حجرة السنة الأولى ، عبر فناء المدرسة الرحب النظيف ، والممر الممتد أمام الجنـاح الشرقى الذى يقع (فصـلى) فى نهايته !

وأديت الامتحان فى أقل من ثلث الوقت المحدد له ، فما كادت معلمة الفصل «أبله عزيزة الدمياطى» تلقى نظرة على اجابتى ، حتى هتفت دون أن تكتم دهشتها :

ـ عجيبة ! هذه اجابة غير منتظرة من أى تلميذة ..

وكتمت ضـحكة كادت تفلت منى ، فما كانت الأسئلة بالنسبة الى ، سوى لعب عيال !

وان عجبت فعجبى للمعلمة التى تتصور أنى مبتدئة فى العلم ، فتستغرب مثل هذه الاجابة منى !

***

وأغرانى التفوق بالاقبال على دروسى الخاصة فى البيت ، التماسا لرضى والدى ، وحرصا على أن يطمئن فلا يروعنى بالحرمان من الذهاب الى المدرسة ، وقد أعاننى على مضاعفة جهدى فى البيت ، أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى

جهد ، فضلا عما اكتشفته منذ اليوم الدراسى الأول ، من أن حصيلتى من دروسى الخاصة ، هى التى تبهر المدرسة فترى فى أعجوبتها النادرة ••

وقد ضقت أول الأمر بجفوة الزميلات ، غير أن الجفوة مالبثت أن ذابت ، فى عالم صبانا الغض البرىء ••



وأطوى حشدا من ذكريات العـامين التاليين بالمدرسة والبيت والقرية ، لأقف عند ذكرى بعينها تشبثت بوجدانى فى الحاح ، وأثرت فى مجرى حياتى تأثيرا بعيد المدى ··

ومنها امتد خيط طويل غير مرئى ، مابين مقعدى فى مدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدميـاط ــ بجـوار النافذة الغربية ، فى نهاية الصف الأول من حجرة الدراسة للفرقة الثالثة ــ وبين مكان لى فى الجامعة ، كان حينذاك مطويا فى مجهول الغيب ·

انها ذكرى رؤيا بعيدة ، ظلت تردنى عبر حدود الزمان الى يوم بذاته ، أخذت فيه مكانى فى الصف ، ودخل علينا مفتش وقور فبدأ يمتحننا فيما حفظنا من سور جزئى «عم وتبـارك» المقررة على فـرقتنا · وحين بدا ضـيقه بتعثر التلميذات فى التلاوة ، تلطفت حضرة النـاظرة «السيدة زينب الحنـاوى» فاقترحت عليه أن يسمع تلاوتى للقـرآن الكريم الذى حفظت أكثره !

وارتاب المفتش فيما سمع ، ثم سألنى أن أسمع له سورة النور ، فلما وصلت منها الى قوله تعالى : «الله نور السماوات والأرض» الآية ، دون أن أخطىء أو أتعثر ، عاد يسألنى

أن أتلو ماأحفظ من «سورة الكهف» فمضيت أتلو وهو يصغى بكل سمعه ، حتى دق الجرس مؤذنا بانتهاء الحصة ، فتوقف برهة يتحدث الى ويدعو لى ، ثم انصرف راضيا وأنا أعجب فى سرى لما بدا لى من سذاجته ، اذ كنت أعلم علم اليقين أن ماحسبه امتيازا لى ، يشاركنى فيه كل طلاب المعهد الدينى بدمياط ، بل كل زملائى من صبية القرية فى «كتاب الشيخ مرسى» !

وعدت الى البيت وأنا لاأفكر اطلاقا فى أن ماحدث لى بالمدرسة ، يستحق أن يروى لأهل البيت ·

غير أنى عندما أويت ليلتها الى فراشى ، رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة ، واذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكانى ، ويعطينى لفافة خضراء ثم يحلق عاليا فى السماء · ولما فتحت اللفافة، وجدت فيها مصحفا شريفا لم تكن عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء !

وكنت بحكم نشأتى فى بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال ، ثم بحكم بنوتى لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة واشراق الوجدان ·

أقول : كنت بحكم ظروف نشأتى وبيئتى ، أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى ، فلما صحوت من نومى ، أدركت عن يقين أن حياتى كلها مرتبطة بهذا المصحف ، هدية السماء الى فى رؤياى ··

ومن يومها ، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ العلماء ،

وصار مكانى المفضل فى خلوة أبى بجامع البحر ، أحاول أن أسبق عمرى وأتجاوز القدر المدروس لى من علوم الاسلام ·

ومن رؤيا الصبا هذه ، امتد الخيط غير المرئى ، بين ذلك الشوط الأول على شط النهر ، وبين ما انتهى اليه طـريقى العلمى من تلمذتى للأستاذ أمين الخولى ، وتخصصى فى دراسة النص القرآنى ، على منهجه ·

أقول هذا وأنا أتمثل نفرا من قومى ، يهزون رءوسهم حين يسمعون ماأروى من حديث رؤياى ، استنكارا لتأثرى بحلم عابر فى منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر ··

ولعلهم لو نشأوا فى مثل بيئتى ، وتلقوا ماتلقيته من ميراثها النفسى والعقلى ، لما أنكروا من الأمر شيئا ·

ومن عجب أنهم لايستغربون قصة أجنبية تقوم عقدتها على رواسب فى أعماق الذات من عهد الطفولة ··

وانهم ليقرأون بشغف وتقدير ، بحوث علماء النفس المحدثين فى الأحلام وبواعثها وآثارها وأصدائها وظلالها ، حتى اذا قالها قائم منا ، من صميم واقعه ، عجبوا وتندروا ، ناسين أننا بشر ، قد يغلب أثر الرؤيا فينا ، حكم الواقع ، ويتحدى بمنطق العاطفة منطق العقل ··



وأرانى استطردت من حيث لم أقصد ، فلأعد الى ماكنت فيــه من تتبع آثار خطاى الأولى على دربى البعيد ، عنــدما أتممت الدراسة بمدرسة اللوزى للبنات ، وقد جاوزت سن العاشرة التى حددها والدى لحجزى فى البيت مع الحريم .

وكنت فى بداية الطريق أتصــور أننى قد أكتفى من التعليم المدرسى بتلك المرحلة الأولى ، غير أنى لم أكد أجتازها حتى كرهت أن تواصل زميلاتى تعليمهن فىالمدرسة الراقية، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير .

ولقد كانت المدرسة الراقية ، تشغل الطابق العلوى من مبنى مدرستنا ، فكنا طوال المرحلة الأولية نرنو مستشرفات الى ذلك الدور الأعلى ونرى فيه منتهى أملنا ! والمفروض أن تختار المدرسة الراقية تلميذاتهامن أتممن الدراسة بتفوق، وقد كنت أولى الناجحات .

ومرة ثانية لجأت إلى جد أمى ، أستعين به علىاقناع والدى ليسمح لى بمواصلة التعليم فى المدرسة الراقية . فلما أعياه أن يقنعه ، ذهب الى جامع البحر ، يستعين بشيوخ المعهد على عنــاد أبى ، واصراره على حجزى فى البيت ، ولم أبلغ بعــد سن الحجاب ..

وطالت المجادلة بينهما حتى صارت الى خصومة حادة ، دون أن يتزحزح والدى عن موقفه • وخرج جدى منفعلا بالغيظ والغضب ، فلم يلتفت الى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه ، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية ، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط !••

حملوه الى البيت ، وجاء أكبر أطباء المدينة فشخص الحالة بأنها اشتباه فى كسر عظم الفخذ ، لايرجى جبره فى تلك الشيخوخة العالية ، وان كان لا خطر منه على حياة الشيخ ، لقوة بنيته وسلامة أجهزته الحيوية •

ومضت شهور الصيف ، وأخوالى يطوفون بالجد على أطباء المظام ومشهورى المجبرين ، الى أن انتهى به المطاف الى فراشه ، ليمضى مابقى من سنوات عمره كسيحا مقعدا •

وعشت معه محنته ، وأرهقنى الشعور بعقدة الذنب أن كنت السبب المباشر لتلك الاصابة التى لاتجبر ، فلزمت غرفته لا أكاد أبرحها الا لقضاء حاجة له ؛ حتى اذا حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية ، أصر على ذهابى اليها ، لايبالى ماقد يلحق به من أذى ، وكان أهل البلدة لايكادون يرتابون فى أن ماحدث له ، ليس الا كرامة من كرامات والدى التقى الولى الصالح •

غير أن والدى رق للشيخ الكسيح فى محنته ، فتخلى له عنى ، أقوم على خدمته وأعيش الى جواره •

وسكت على مضض ، حين أرسلنى جدى الى المدرسة الراقية ••

وكأنه كره فى أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد ، فى الرغبة الوحيدة التى تعلق بها ، وزادته المحنة اصرارا عليها وتشبثا بها .

***

وأظنني بدأت فى تلك المرحلة ، آتصل بالصحافة والحياة العامة عن طريق غير مباشر : فلقد كانت الهواية الوحيـدة لجدى بعد أن قيدته الحادثة الى فراشه ، أن يتتبع ماتنشره الصحف من أخبار . كما كان مشغلته ، التفكير فى انقاذ دمياط من الموت الاقتصادى الذى يهددها بتراكم رواسب النيل عند بوغازها قرب المصب على ساحل البحر .

وتحت وطأة شـعورى بالأسى لما أصـاب جـدى بسبب اصراره على تحقيق مناى فى التعليم بالمدرسة ، تفانيت فى خدمته وأنا أشعر نحوه بولاء المدين بدين باهظ ، فكان من واجباتى اليومية ، أن أشترى له فى طـريق عـودتى من المدرسة ، جريدتى الأهرام والمقطم ، لأقرأهما له ، ثم أجلس اليه فى عطلة آخر الأسـبوع ، ليملى على «عـرض حالات ومقالات» يبعث بها الى الحكام فى مصر ، والىالصحف اليومية ، فى موضوع تعطل الميناء وحوادث غرق السفن الشراعية أثناء عبورها البوغاز ، لكثرة ماتراكم فيــه من رواسب على مر الزمن ..

وهكذا على مدى السنوات الثلاث التى قضيتها فىالمدرسة الراقية ، تابعت هذا العمل ، وكنت أول الأمر أستجيب فيه لحرصى على أداء بعض ما أدين به لجدى . غير أنى مالبثت أن أحببت الكتابة ، وأرضانى أن أطالع فى الصحف ماكتبته تعبيرا عما كان الجد يمليه عليه ، فمضيت أتفنن فى الأسلوب وأبذل لتجويده كل طاقتى ..

حتى أتممت المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح، وبعدها بدا الطريق أمامي مسدودا ..

فمن ناحية ، كنت قد بلغت من العمر ثلاثة عشر عاما ، وهى سن الحجاب التى تفرض حجزى فى البيت مع الحريم !

ومن ناحية أخرى ، لم يبق فى دمياط أى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية ، وانما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم ، اما أن يقضين شهورا أربعة فى «دراسة صيفية» تعدهن لوظيفة معلمات فى المدارس الأولية للبنات ، واما أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالمنصورة وهى أقرب عاصمة الى بلدتنا ، من عواصم المديريات التى فيها مدارس للمعلمات .

ولم أفكر بطبيعة الحال ، فى تلك الدراسة الصيفية الهزيلة التى ألجأت اليها ضرورة طارئة للتعجيل بتخريج معلمات من أدنى المستويات ، بل تطلعت ، متحدية كل دواعى اليأس والقنوط ، الى مدرسة المعلمات بالمنصورة . وشاءت الظروف أن يتحدد موعد امتحان القبول بها ، أثناء غياب والدى عن دمياط ، فى احدى رحلاته المتتابعة لحضور موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين ، مابين القاهرة وطنطا ودسوق . وكان من عادته فى مثل هذه الرحلات ، أن يعرج

فى طريق العودة على قرية «أبى حريز» بمديرية الشرقية ، ليزور شيخه فى الطريق وامامه فى التصوف ، العارف بالله «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» فتستغرق الرحلة الواحدة نحو عشرة أيام ، على حين لايحتاج الامتحان الى أكثر من أربعة أيام ••

ورق لى قلب أمى ، حين رأت اصرارى على أداء الامتحان، وليكن بعد ذلك مايكون • فجازفت وتسللت بى من دمياط ذات صباح الى المنصورة ، حيث تركتنى بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات ، على أن أعود بعد أيام الامتحان الأربعة ، مع زميلاتى من بنات دمياط •

ولا أصف هنا مدى انفعالى بذلك الجو المدرسىفى مستواه العالى الذى لا عهد لنا بمثله فيما مضى • وقد رحت أطوف بأرجاء المبنى الكبير ماخوذة بالنسق البديع لعنابر النوم ، وقاعة المكتبة ، وحجرات الدراسة • وكان نظام الامتحان يسمح لمن أتمت التعليم بالمدرسة الراقية ، آن تؤدى امتحان القبول للسنة الثانية معلمات مباشرة • أما اللواتى لم ينلن الشهادة الراقية ، فيتقدمن لامتحان القبول بالسنة الأولى •

وأديت الامتحان الأول ، للسنة الثانية ، وأنا أقهر فى أعماقى شعور الخوف من والدى • حتى اذا فرغت منه ، وأخذت أول قطار الى دمياط ، عاودنى ذلك الخوف الذى أفلحت فى مقاومته لمدى أيام ، فعاد أقسى ضراوة وحدة ••

وتمهلت عند باب بيتنا فترة لم تطل ، ثم انطلقت الى بيت جدى ألتمس الأخبار عن بيتنا فى غيبتى ، وأتزود

بمدد من التشجيع يعينني على مواجهة والدى ان كان قد علم بالخطوة الجريئة التى خطوتها فى غيبته ٠

لكن الأزمة مرت بسلام ٠٠

أو هكذا بدا لنـا ، حتى دنا موعـد الموسم الدراسى ففوجئت بأن زميلاتى اللائى أدين معى الامتحان ، تلقين من ادارة المدرسة اخطـارا بقبولهن ، ومعـه بيان بالملابس والأمتعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى ٠

ولم أتلق معهن مثل هذا الاخطار ، مع ان المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان ، وكنت آولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية !

وأشار جدى بأن نبعث خطابا مسجلا الى المدرسـة ، نستفسر فيه عن الموقف الغريب ، وسرعان ماتلقينا الرد ، بأن والدى تقدم الى المدرسة بوصفه ولى الأمر ، فسحب كل أوراق التحاقى بها !

***

فعلها أبى اذا ، دون أن يتكلف من جهد مجـادلة أو مغاضبة !

وجن يأسى ، فأمسكت عن الطعـام حتى خيف على من الموت ، وتكاثر آهلى وزملاء والدى عليه ، فلم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطابا الى ادارة المدرسة !

وماكان لى ولا لأحد سواى أن نرتاب فى صدق كلمته ٠ غير أن الذى حـدث فعـلا ـ كما أخبرنا بعد آن افتتحت الدراسة ولا خبر من هناك ـ أنه وضع ورقة بيضـاء فى مظروف كتب عليه عنوان المدرسة ، وألقـاه فى صـندوق

البريد ، فتحلل بذلك الاجراء الصــورى ، من تبعة الحنث بوعده !

***

بعد شهرين من بدء الدراسة ، كانت أمى ، رحمها الله، قد ظفرت لى بالاذن فى التعليم ، ممن لايملك والدى أن يعصى له أمرا : صحبت أبى فى ســفره الى امامه وقدوته «الشــيخ منصــور أبى هيكل الشرقاوى» وعــرضت عليه القضية ، ومازالت تستعطفه وترجـوه ، حتى آذن لى فى التعلم ، على مسمع من والدى !

وعــادت لى بالبشرى فردت الروح الى ، ثم ســارعت فجهزت لى ملابسى وأمتعتى المطلوبة للقسم الداخلى ــ وكأنه جهاز عرسى ــ وسافرنا الى المنصورة لنفاجأ بأن المدرســة استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات ، فلم يعد لى فيها مكان !..

وقبل أن نفيق من ذهول الصدمة المباغتة ، استطردت ناظرة المدرســة فأشارت علينــا بتقديم طلب التحاق الى مدرسة جديدة للمعلمات ، تقرر فتحها فى مدينة حلوان ، وماتزال هناك فرصة لقبولى بها ، لأن الدراسة فيها لم تكن بدأت بعد ..

وتطوعت السيدة الناظرة ، فزودتنا بشهادة رسمية من المدرســة ، بأنى نجحت بتفوق فى امتحان القبول للســنة الثانية بها .

وخرجنا ، وفى ظنى أن أمى سوف تعود بى الى دمياط ريثما تدبر أمــر الرحلة الى مدينــة حلوان التى لم تكن

سمعنا باسمها من قبل ، ولا كان لنـا علم بطريق الوصول اليها ومايتكلفه من نقود ..

لكن أمى لم تلبث فى المنصورة الا ريثما باعت سوارا ذهبيا كانت تتزين به ، وقطعت لنا تذكرتى سفر بالدرجة الثالثة ، فى أول قطار الى القاهرة !

وألقى بنا القطار فى ضجيج الزحـام بمحطة مصر ، غريبتين ضائعتين ، لانكاد ندرى موضع أقدامنـا فى ذلك العالم الصاخب المجهول ، وأذكر أننى أغمضت عينى ، كأنى أتقى شبح الضياع ، على حين مضت آمى تسـأل من تتوسم فيهم الخير ، عن طريق الوصول الى «شارع زين العابدين» بالسـيدة زينب ، حيث كان خالها يسـكن فى بيت يملكه هناك .

وصحبنا الخال الى حلوان ، لنفاجأ بأن المدرسة الجديدة لن تبدأ الدراسة فى ذلك العـام ، الا بفصـول الفـرقة الأولى !..

وتشاغلت ناظرة المدرسة عن لمح مابدا علينا من بوادر الخيبة ، بقراءة الخطاب الذى حملناه اليها من المنصورة ، ثم أقبلت علينا بوجه باش ، فأعربت عن ترحيبها بقبولى ، لو أنى تنازلت عن حقى فى دخول السنة الثانية التى نجحت فى امتحان القبول بها ..

ووقع خالى اقرار التنازل ، ونحن لانكاد نصدق أن باب الفرج قد فتح أمامنا بعد يأس غالب !

وأحست آمى ، كأن عبئا ثقيـلا آزيح عن كاهلهـا ، فاسترسلت ـ متأثرة بلطف حضرةالناظرة وأنس محضرها ـ

تفضى اليها بما لقينا فى طريقنا من نصب ، فما كان من السيدة الكريمة الا أن آذنت لى فى الاقامة بالمدرسة الى أن يحين موعد افتتاح الدراسة بعد أسبوعين •

وودعتنى أمى ، وهى مطمئنة الى رعاية الله لى فى ضيافة هذه السيدة الطيبة ناظرة المدرسة • وعادت الى دمياط لتقف وحدها فى مهب الاعصار ، وعلى وجهها نور الاستشهاد !

***

كان مبنى المدرسة قصرا شامخا يقوم فى أقصى الطرف الجنوبى لحلوان ، وسط حديقة واسعة تفصل مبنى المدرسة عن الخلاء المقفر الممتد وراءها الى نهاية مد البصر •

وقد طاب لى أن أسرح فى الحديقة ساعات الصباح والمساء ، متطلعة بوجدانى الى بلدتى البعيدة وشاطئى المهجور وأهلى النائين • وأنست الى وحدتى ، حيث كنت أقيم فى جناح الداخلية ، بعيدا عن الجناح المخصص للسيدة الناظرة ومعاوناتها من هيئة الادارة والتدريس ، فقلما كنت أتصل بغير (الفراشة) المختصة بالخدمة فى القسم الداخلى ، والتى كانت تحمل طعامى الى ، فى أوقاته المعينة، ثم تبيت فى غرفة مجاورة لمخدعى فى عنبر الداخلية •

ولم يزعجنى فى أول الأمر ، سوى عواء الذئاب فى الصحراء الممتدة وراء القصر ، غير أنى مالبثت أن ألفته واعتدت عليه ، فصرت أصحو من نومى على ذلك العواء الذى يجرح صمت الليل ، وكأنى معه على موعد ، فأجد فى الاصغاء اليه مجالا للتأمل فيما عساه يضنى الوحوش من أحزان ومواجع وهموم •• ذلك أنى ماسمعتها قط تعوى الا فى

جوف الليل ، وبمجرد أن يبدأ ذئب منها فى العواء ، تجاوبه سائر ذئات المنطقة وتتجمع من هناك وهنالك متواثبة الى حافة العمران ، وكأنها تفر من وحشة الليل وتلتمس فى التجمع والدنو من العمران ، شيئا من الايناس لاتجرؤ على التماسه فى ضوء النهار خوفا من أذى الناس وعدوانهم ..

***

وقبل افتتاح الدراسة بيومين، بدأتالطالبات المغتربات يتوافدن من أقاليم بعيدة شتى ، فانتهت بذلك فترة الوحدة التى أمضيتها مع نفسى ، وكتمت ضيقى بالضجيج الذى أفسد على ، هدوء الخلوة واستغراق التأمل ، لكن الدراسة لم تكد تبدأ حتى ازدهانى أن يكون لى امتيازالطالبة الوحيدة التى تنازلت عن حقها فى دخول السنة الثانية ، فلم أشعر بأدنى غضاضة من وجودى مع طالبات السنة الأولى ، ولا ساورنى أى ندم على قبوله ، بل لعلى ماكففت عن استجماع وعيى ، لأصدق أننى قد ظفرت حقا بما كان يبدو لى ، من كواذب الأمانى وسراب الأوهام ..

وكان شعورى بالأمان ، يفيض على دنياى أنسا وطمأنينة ، فاندمجت بكل كيانى فى بيئتى الجديدة ، وحرصت على أن أحقق بتفوقى واجتهادى ، مكانا لى مرموقا فيها .

دون أن يخطر لى على بال ، أن تلك الفترة السعيدة التى أمضيتها فى «حلوان» لم تكن سوى هدنة مؤقتة من شواغل القنوط ومحنة القلق ، ريثما أتلقى الصدمة الجديدة من حيث لاأدرى ولا أتوقع ..

***

استدعتنى حضرة الناظرة ذات يوم الى مكتبها ، ولم يكن قد مضى على فى عالمى الجديد الآمن غير شهرين ، وأنبأتنى بأقصى ماتستطيع من عطف وترفق ، آن وزارة المعارف رفضت رسميا اعتماد قبولى طالبة بالمدرسة ، حيث لاتجيز اللوائح أن أقبل الا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها

وغشينى مايشبه الدوار لحظة ، كانت نفسى خلالها تفتش عن خيط من الرجاء ، يعصمنى من الانهيار ·

وتماسكت وأنا أردد ، وكأنى أخاطب نفسى :

«هل أستطيع الانتظار الى العام التالى ، حيث تكون المدرسة قد افتتحت فصولا للسنة الثانية ؟·· ولكن ، من يضمن لى أن يردنى والدى الى المدرسة ، بعد عودتى اليه ؟»

وقالت الناظرة وهى تبالغ فى مواساتى :

ــ بل تبقين هنا فى ضيافتى ، وعلى مسئوليتى ، الى أن أراجع وزارة المعارف فى قرارها بشأنك ، فلعلها ترجع عنه ، أو فلتدبر لك مكانا فى السنة الثانية بمدرسة معلمات طنطا ، حيث أعلم أن بها أماكن خالية ·

ورغم تأثرى العميق بهذه الرعاية الكريمة ، أشفقت على نفسى من الاغترار بأمل كان يبدو لى فى منطقة السراب ، فاستسلمت للقنوط وأمضيت أياما تعســة ، منطوية على نفسى أجتر الصدمة ٠

حتى جاء رد مدرسة معلمات طنطا بعــد حين ، بقبول التحاقى بالســنة الثانية فيها ، بشرط النجــاح فى الكشف الطبى ، حيث لم أكن قد أديت هذا الكشف فى المنصورة ٠

وجاء عمى ــ وكان قد عين ناظــرا لمدرسة البنين فى احدى قرى امبابة ــ فتسلمنى من المدرســة ، ومضى بى الى القاهرة حيث أنزلنى فى ضيافة أسرة صــديق لوالدى من كبار رجال التعليم «الشيخ موسى قمر ، الأســتاذ بالمدرسة السنية للمعلمات ودار العلوم» رحمه الله ٠٠

وتقــرر أن أجــرى الكشف فى القسم الطبى بوزارة المعــارف ، كى أذهب بعــده مباشرة الى طنطا ، مستكملة مسوغات القبول ٠

ونصح الأستاذ الشيخ موسى لعمى ، أن يمضى بى الى أحد أطباء العيون لاجراء كشف تمهيدى قبل اجرائه رسميا فى الوزارة ٠ وقد نجحت فى ذلك الكشف التمهيدى ، وان يكن الطبيب قد أوصى بعمل نظارة طبية ، ضمانا للنجاح ، مع احتمال الشدة فى الكشف الرسمى ٠

واذ كان عمى يلبس نظارة ، سألته ونحن فى طريقنا الى منزل الضيافة ، عمــا اذا كانت نظــارته طبية ؟ فلما رد بالايجاب ، اقترحت عليه أن يعيرنى اياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة !

قال وهو يقدمها الى :

ــ جربيها أولا ، لنرى هل هى على مقاس بصرك ؟

فلم أفهم بالضبط ماذا يعنى بمقاس البصر ، اذ كنت لغفلتى وسذاجتى أتصور أن كل النظارات الطبية سـواء ! ومادام عمى يملك احداها ، فأولى بى أن أستعيرها منه ، بدلا من ارهاقه بشراء نظارة أخرى ٠

وجربتها مع ذلك ، اجابة لطلبه ، فلم يشق على أن أميز المرئيات بها !

وهكذا توجهت فى الصباح التالى ، يصحبنى عمى ، الى القسم الطبى بمبنى وزارة المعارف ، حيث أدخلونى ، ومعى النظارة المستعارة ، الى (خواجايه) ترطن بلغة أعجمية لاأفقه منها حرفا ، وقيل لى انها «المسز جارفس» رئيسة القسم الطبى للبنات بالوزارة !

ولم أسترح قط الى هذه السيدة الأجنبية ، فى جفاف أساريرها وخشونة ملامحها ، ومايبدو فى حركاتها ولهجة صوتها ، من مخايل الكبر والتعالى ٠ وخيل الى أنها ازدرت سحنتى الاقليمية وزيى البلدى ، فلم تستغرق معى فى اجراء كشف النظر سوى دقيقة واحدة التقطت فيها مؤشرا وأشارت الى الصف الأعلى من لوحة علامات الابصار ، مرة واحـدة للعين اليمنى وأخرى للعين اليسرى ، ثم صرفتنى فى ضيق لم تحاول اخفاءه ٠٠

وانتظرنا على باب مكتبها ، حتى خرج سكرتيرها الخاص فأعلن نتيجـة الكشف : ٦ على ٦٠ لكلتا العينين ، وتأشـيرة بسقوطى فى كشف النظر !

جرنى عمى جرا ، وأنا منهارة من اليأس ، فذهب بى الى طبيب العيون الذى مالبث أن اكتشف سر المأساة •

وأمر فتوجهنا الى متجر كبير للنظارات ، قرب ميدان «العتبة الخضراء» حيث استسلمت لعملية فحص وتجربة ، زودنى بعدها بنظارة طبية على مقاس بصرى ، استطعت أن أميز فتحات الدوائر السفلى من لوحة علامات النظر •

وعدت الى وزارة المعارف ، فى صحبة «الأستاذ الشيخ موسى قمر» هذه المرة ،فرفضت «مسز جارفس» أن تستقبلنى، ولم تستجب لرجاء السيد مراقب تعليم البنات فى اعادة الكشف الطبى ، وذلك ـ فيما فهمت من الحوار حول الموضوع ـ حق مقرر لى بمقتضى اللوائح •

ولم ييأس «الشيخ موسى» بل راح يطوف بمكاتب الوزارة ، مكررا عشر مرات وعشرين ، قصتى مع نظارة عمى ، حتى استطاع آخر الأمر أن يظفر لى بخطاب من سعادة مراقب تعليم البنات ، الى مدرسة معلمات طنطا ، لتقبلنى بالسنة الثانية ، بعد أن تعيد الكشف الطبى على •

وتطوع الأستاذ الشيخ فسافر بى الى طنطا ، وانتظر حتى أتمت طبيبة المدرسة اجراء الكشف وأعلنت نجاحى فيه •

وتركنى الشيخ الجليل فى رعاية زميليه مدرسى اللغة العربية بالمدرسة ، وودعنى بعد أن اطمأن الى استقرارى فى القسم الداخلى ، واستكمل ماكان ينقصنى من حاجاته !

***

وحسبت أنها نهاية المطاف ، فأقبلت على دروسى جادة فى تحصيل مافاتنى منها ، وقد أوشك امتحان نصف السنة أن يعقد ..

وأديته بنجاح ، ثم تابعت الدراسة بقية الموسم ، وأنا أقاوم بكل طاقتى شعورا بقلق خفى ، ظل يطاردنى فى اليقظة والمنام . وقد عللته بأنه فرط حرص منى على مواصلة التعليم ، وصدى لما لقيت من مخاطر الطريق ..

ذلك لأنه لم يكن هناك فى الظاهر ، مايدعو الى قلق أو خوف ، فالرسائل تأتينى من أمى بانتظام ، ولا جديد فيها من أخبار عن الأسرة ، مما يشغل البال ..

وعدت الى البيت بعد أن اجتزت امتحان النقل الى السنة الثالثه ، لأواجه ماطوته عنى أمى فى رسائلها الى ، من مأساتنا :

مات جدى الشيخ ، وواروه الثرى دون أن أتزود منه بنظرة وداع أخير ..

ومضى ، دون أن أشيعه الى مثواه ، بكلمة ولاء وعهد ووفاء ، تؤنس وحشة رحلته الى حى الموتى ، فى الطرف الأقصى من البلدة .

وتعرض بيتنا بعده لهزة عاصفة كادت تقوضه ، اذ عاد أبى يصر على حجزى بالمنزل ، وردى الى الطريق المستقيم الذى انحرفت عنه .

وألفيت أمى مضغوطة بين شقى الرحى : لاتستطيع أن تتخلى عنى ، كما لاتستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت

للخراب ، وفيه شقيقات لى خمس ، وشقيقان اصغرهما رضيع في الشهور الأولى من عمره !

وكلا الأمرين ، أحلاهما مر !

وكانت أمي أقرب الى أن تحميني بأى ثمن ، غير أني ماكدت أذكر ماأصاب جدى بسببي ، حتى تهيبت التضحية الفـادحة التى تريد أمي ان تتحملها من أجـلى ! وروعنى التفكير في احتمال أن يصيبها مثل ماأصاب الجـد ، ان هى جازفت باغضاب أبي ، على مانعلم من سره الباتع !

كما روعنى أن أتمثل اخوتى السبع الصغار ، حطاما مبعثرا بين أنقاض البيت الموشك على الانهيار .

هنالك قررت أن دورى قد جاء ، لأحتمل عن أمي العبء الباهظ ، فأكون قربان الفداء لسلامة البيت

وساعدت الظروف على حسم الموقف ، حين أصبت بانهيار عصبي أعيا الرقاة والأساة دواؤه ، فانقطعت عن المدرسة ، وتقرر شطب اسمي من سجل طالباتها ، لعجزى عن الانتظام فى الدراسة .

ولم يبد على والدى أى قلق من ناحيتى ، بل لعله كان بحيث يؤثر لى أن أموت ولا أحيد عن طريق العلم الحق ، وعد كل ماأعانى ، تكفيرا عن خطيئة خروجي الى المدارس !..

أمى هى التى كانت شقية بمحنتى ، وقد تضاعف همى بشقائها ، فاذا بنا معا ، فى دوامة من العذاب !

ومن أجلها تماسكت !

ولأجلها رحت ألتمس منفذا عبر الطريق المسدود ، بعد أن أراحنى الياس من هم التطلع والطموح ··

رحت ألتمس منفذا ، لتطمئن آمى الى ان كل مااحتملناه فى الشوط الذى فات ، لم يذهب عبثا ··

***

كان المنفذ الوحيد أمامى ، آن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات ، حيث عكفت على تحصيلها ثم تسللت من البيت خفية ، وأبى غائب عن المدينة فى احدى رحلاته ، فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه ـ وانا الوحيدة التى تقدمت اليه من المنزل ـ آولى الناجحات فى مصر · بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع ، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح !

لكن ذلك الشوط لم يمض ، الا بعد أن وقفت لحظة في نهايته ، وقد لاح لى من بعيد ، طريق آخـر لم أكن اتجهت اليه قط ، ولا جرؤت أحلامى على آن تتمثله آو تتعلق به ٠

كلا ٠٠

ولا كنت بحيث أعلم آنه الطريق المخطوط لى فى لوح القدر ، كى يفضى بى الى الدرب العجيب الذى آجـد فيـه ذاتى ٠

وقد بدا الأمر حينذاك ، أشبه بمصادفة عابرة ، لاتلبث أن تمضى دون أن تغير متجه خطواتى ، آو تترك فى دنياى أثرا ذا بال :

حدث ذاك ،يوم أخذت مكانى في جانب من قاعةالامتحان الشفهى لشهادة المعلمات ، آنتظر دورى لأؤديه بعد الطالبات الرسميات ٠

وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهن فى تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة ، فلما جـاء دورى وتلوت مجودة ما اختاروا لى من سورتى النساء والنور، سئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية ، فكان جوابى أن سألت : من أى عصر ؟

وعجب الممتحنون سؤالى ، ثم طلبوا نصا من العصر الجاهلى فأنشدتهم أبياتا من معلقة طرفة بن العبد ، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبى فى آخيه كليب •

قالوا : أسمعينا شيئا من شعر صدر الاسلام •

فبادرت أنشد لأمية كعب بن زهير ★ بانت سعاد ★

ثم مازالوا ينتقلون بى من عصر الى عصر وهم فى دهشة من حفظى ، حتى اذا وصلنا الى العصر الحديث فاجأتهم بسؤالى :

ــ من شعرى أو من شعر سواى ؟

ولم ينسنى مر السنين ، مابدا عليهم من عجب ، وقد قال أحدهم :

ــ ان كنت شاعرة فأسمعينا احدى قصائدك •

وأنشدتهم قصيدة لى «فى الحنين الى دمياط» مطلعها :

دمياط حبك حركت أشجانه آلام قلب فى الغرام مصفد

ثم أتبعتها أخرى : صورة شعرية لزوجة صياد خرج الى البحيرة فى ليل عاصف ••

ولم يبق لديهم مايمتحنوننى فيه ، فأقبلوا على يسألوننى عن وجهتى فى التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات

وكان أقصى مايقف عنده الشوط الذى سرت فيه ، اتمام الدراسة «بالقسم الاضافى فى معلمات بولاق» ومدته سنتان،

تتخرج بعـده الطالبات معلمات فى المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية ، على حين لايتاح لحاملات شهادة الكفاءة الا التعليم فى المدارس الأولية والالزامية ·

وأجبت عن سؤال السادة الممتحنين :

ــ فى نيتى أن أعكف عــلى تحصيل المواد المقــررة على القسم الاضافى ، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحانه النهائى··

فأنكروا ماسمعوا من جوابى ، وزينوا لى أن أعدل عن هذا الطريق القريب ، الى طريق الجامعة ، ففيها وحده المجال الرحب الذى يستحق أن أتعلق به وأسعى اليه :

وفى ظنى ، أنى لم أكن حتى ذلك اليوم ، قد سمعت عن الجامعة الا كلمــات مبهمة ترجمها بالزيغ والضــلال ، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر ، وليس فى مكتبة بيتنا غير كتب علوم الاسلام والعربية ، وليس فى بيت جدى بدمياط ، سوى خزانة كتب ومخطوطات اسلامية ، من مخلفات الشيخ الدمهوجى الكبير ·

واذ فهمت من كلام الأساتذة الممتحنين ، أن الطريق الى الجامعة يحتاج الى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسـية ، عجبت بدورى لشططهم فى تقدير طاقتى وعدتى ، وانى لمن بيئة لم تدنسها كلمة من لغة الفرنجة !

وانصرفت ، وليس فى نيتى اطــلاقا أن أشـغل نفسى بالتفكير فى هذه «الجامعة» التى زينوا لى الاتجاه اليّها ·

***

أتاحت لى أولويتى فى شهادة كفاءة المعلمات ، فرصة اختيار المدرسة التى أعين للتدريس فيها • وكان المتوقع أن يرفض والدى احترافى للتدريس رفضا باتا ، لكن زملاءه من أصدقاء الأسرة ، تكاثروا عليه حتى أقنعوه بأن الوسيلة الوحيدة التى تجدى مع مثلى ، هى أن يدعنى أجرب مهنة التدريس ، فلن ألبث أن أزهد فيها وأصد عنها باختيارى دون اكراه منه لن يزيدنى الا شغفا بالممنوع !

وكان يسعدنى أن أعود الى مدرسة اللوزى بدمياط ، معلمة فيها بعد أن كنت تلميذة بها ، لكنى آثرت العمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، لأقيم فى القسم الداخلى بها ، بمنأى عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الاضافى ، استعدادا للتقدم بعد عامين ، الى امتحان اجازته •

وأقبلت من اليوم الأول على التحصيل ، قانعة بالهدف الذى يبدو قريبا منى ، دون أن يساورنى أى طموح الى الطريق الآخر البعيد ، الذى ألقيت به عمدا فى طوايا النسيان ، كيلا أبدد طاقتى بتطلع عقيم الى منطقة السراب !

***

ومضى على عملى بالمنصورة عام وبعض عام ، ملأت كل دقيقة منها بالتدريس نهارا ، والتحصيل ليلا · وكنت كلما أجهدنى العمل المزدوج ، روحت عن نفسى بمطالعة كتب من صنف جديد ، غير الذى كان متاحا لى فى مكتبة بيتنا ·

وأدين «لمكتبة السروى» فى المنصورة ، بهذا الأفق الجديد الذى فتحته أمامى بأيسر جهد وكلفة ، اذ كانت تتبع أسلوبا مبتدعا فى تأجير الكتب ! يستطيع به القارىء أن يأخذ كتابا أو اثنين من مقتنيات المكتبـة ، ثم يردهما بعـد مطالعتهما ويستبدل بهما كتابين غـيرهما ، نظير قروش معـدودات · وأتاح لى هذا النظام ، أن أقرأ فى العامين اللذين أمضيتهما بالمنصورة ، كل كتب المنفلوطى المؤلفـة والمترجمة ، وكل روايات تاريخ الاسلام لجورجى زيدان ، وجمهورية افلاطون ترجمة حنا خباز ، وأيام الدكتور طه حسين ، والالياذة ترجمة البستانى ، وألف ليلة وليلة ·· وغيرها من الصنف الممنوع، فى عرف بيئتى ··

وحان الموعد المحدد رسميا لتقديم طلب أداء الامتحان لاجازة القسم الاضافى ، فبادرت بارساله بالبريد المسجل الى مدرسة المعلمات فى بولاق ، وبينى وبين الامتحان أربعة أشهر تكفى لتثبيت الدروس التى حصلتها ·· واستيعاب المـواد المقررة ··

غير أنى فوجئت بطلبى مردودا الى من ادارة المدرسة ، مع الاعتذار عن رفضه بأن اللوائح لاتجيز التقدم الى امتحان القسم الاضـافى من المنزل ، وانمـا هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن ··

* * *

ولبثت أياما وليالى ، أغرى نفسى براحة اليأس وأروضها على الاستسلام ..

لكنى عدت فذكرت ما مر بى من أزمات ، وأطلت التفكير فيما صنع لى «الاستاذ الشيخ موسى قمر» عندما سقطت فى الكشف الطبى بنظارة عمى !..

وتعلقت به آمالى ، وأنا آخذ القطار من المنصورة الى القاهرة ، فى اجازة مرضية ، وفى تصورى أننى ماأكاد أصل فى صحبة الشيخ الجليل الى سعادة مراقب تعليم البنات ، حتى يأذن لى فى دخول الامتحان ، بصفة استثنائية ، ان لم تبررها ظروفى الخاصة ، فلقد يكفى لتبريرها أنى كنت أولى الناجحات فى شهادة الكفاءة ، للفوج الذى يوشك على التخرج من القسم الاضافى .

لكن الأمر جرى على غير ماتوقعت :

صحبنى عمى «الأستاذ الشيخ موسى قمر» الى سعادة المراقب الذى أصغى الى قضيتى فى عطف واهتمام ، ثم كان الحل البديل الذى اقترحه السيد المراقب ، أن أعدل عن التمسك بدخول امتحان القسم الاضافى ، وأتقدم بدلا منه الى امتحان الشهادة الابتدائية ، وهو مباح لمن شاء أن يتقدم اليه من طلبة المنازل .

ولم يدعا لى فرصة للتفكير أو التردد ، اذ كان موعد تقديم طلب الامتحان ينتهى فى يومنا ذاك ، وأمر سعادة المراقب فجىء لى باستمارة من ديوان الوزارة ، وجلست فى مكتبه لكى أملأ خاناتها ، فلما توقفت عند «اسم التلميذ باللغة الأوروبية» تطوع أحد موظفى المراقبة فكتبه لى على

ورقـة مستقلة ، وكان على أن أنقـله الى «اسـتمارة طلب الامتحان» كما أنقل الرسم !٠٠

سألت في حيرة :

ـ لكن كيف أؤدى الامتحان فى هذه اللغة ، ولا علم لى بأى حرف منها ؟٠٠

وأجاب الشيخ موسى :

ـ لابأس عليك ، تسـتطيعين بشـهادة مرضية تأجيل الامتحان الى الدور الثانى فى شهر سبتمبر ، وبيننا وبينه سبعة أشهر تتفرغين فيها لتعلم القدر المقرر على الشـهادة الابتدائية من اللغة الانجليزية ، ولست فى حاجة الى بذل أى جهد لتحصيل بقية العلوم ، بل تكفيك مراجعة سريعة لمواد الامتحان فى الشهادة الابتدائية ٠

وبادر رحمه الله فالتمس من سعادة المراقب آمرا بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصـورة ، الى احدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة ، قريبا من مسكن الأستاذ فى شـارع الخليج المصرى ، كى أمضى فترة الاستعداد للامتحان ، مـع ابنته «فتحية» التلميذة بالسـنة الرابعة بالمدرسة السنية الابتدائية ، ومعها أستطيع أن أراجع الدروس المقررة عليها للشهادة ، على آن آنفرد بدرس خاص فى اللغة الانجليزية ٠

ولم تمض أيام حتى كنت قد أتممت اجراءات النقل من المنصورة الى القاهرة ، واستقر بى المكان فى ضيافة أسرة

الشيخ موسى قمر ، وفى صحبة ابنته الصديقة العزيزة •
وقد ألزمت نفسى فى درس اللغة الانجليزية ، حفظ قدر معين من مفرداتها يوميا ، وفى حسابى أننى كلما تزودت بقدر كاف من مفرداتها ، آمكننى التصرف فى الاجابة عن آسئلة الامتحان ، بما تهيأ لى من قدرة على الانشاء !



وهكذا اتجهت ، عن غير قصد ، الى ذلك الطريق الآخر البعيد الذى سمعت عنه لأول مرة فى طنطا منذ عامين ، من أعضاء لجنة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات ، فصرفت عنه بالى وقتئذ ، يأسا من امكان الوصول اليه ..

ثم لما وجهت اليه ، لم ألبث أن اكتشفت آن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته ، يسير فى اتجاه مواز لايلتقى آبدا مع الطريق الموصل الى الجامعة ، عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية ..

ولا أظن اننى التفت فى تلك السن الغضة ـ مع ضآلة خبرتى وتجربتى ، وبعدى عن الحياة العامة ـ الى لؤم ذلك الوضع الثنائى للتعليم . بل لم التفت كذلك الى دعمه الطبقية الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية ، تجعل المقدرة المالية وحدها جواز المرور عبر المراحل الابتدائية والثانوية والعالية ، وتتفاوت بها : حظوظ آبناء الأمة وفرص تعليمهم ومجال عملهم بعد التخرج ، تفاوت مابين الاقطاعيين والأجراء .

ذلك لأنى ماقصدت الى دخول مدرسةابتدائية آو ثانوية، بعد آن صدتنى التقاليد عنها وانتهى بى موقف والدى الى اليأس منها . كل الذى شغلنى هو تحصيل المقررات المدرسية

على كل مرحلة ، ثم التفكير فى وسيلة أتسلل بها الى لجـان الامتحان للمراحل الموصلة الى الجامعة ، كما فعلت فى طريقى الأول .

هنالك أدركت ان المناهج التى درست عليها ، سواء منها ماتلقيته فى بيتنا على أبى وزمـلائه المشـايخ ، وماحصلته باجتهادى من مواد الدراسة لكفاءة المعلمات والقسم الاضافى، كانت قد فصمتنا تماما عن الثقافة العصرية المتاحة لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، كما حصنتنا ضد جـرثومة لغات الفرنجة وزيغ العلم الحديث ، فبلغت أقصى الشوط فى طريقى الأول من الكتاب والمدرسة الاسـلامية الى المدرسة الأولية والراقية ، فمدرسة المعلمات والقسم الاضافى ، ولم أعرف حرفا واحدا من لغة أجنبية ، ولا شاهدت أى جهـاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التـلاميذ العصريون دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء ، ولا كان لى ولا لأمثالى ممن أخـذوا طريق التعليم الأولى ، عهـد بكتاب من كتب العلوم الحديثة التى كانت محرمة على غير من يأخذون الطريق الى الجامعة !

وتبين لى أن لا سبيل الى الجامعة ، الا أن أعود على بدء فآخذ الطريق الآخر من أوله ، وأسايره مرحلة بعد مرحلة ..

وكدت أتراجع من بداية الطريق .

كنت قد جازفت ــ بعد قياس مستوى تلميذات المدرسة السنية الابتدائية ــ فدخلت امتحان الدور الأول للشهادة ، وأديت امتحان اللغة العربية والحساب والجغرافيا والتاريخ ، واثقة أن اجاباتى فيها تعطينى درجاتها النهائية ، بحيث

يكفينى بعد ذلك ـ وقد ضمنت تجاوز الحد المقرر لمجموع الدرجات ـ آخذ أدنى درجة للنجاح فى اللغة الانجليزية .

واذ كانت الفترة القصيرة التى تعلمتها فيها ، لم تكف لاستيعاب قواعد اللغة (الجرامر) والاملاء ، وضعت أملى كله فى موضوع الانشاء ، اعتمادا على قراءتى لكتاب «السندباد البحرى» المقرر علينا ، واطمئنانى الى امكان اجابتى عن أى سؤال فيه ..

وجاء سؤال الانشاء ، يطلب الينا كتابة عشر جمل فى : «كيف نجا السندباد من وادى الأفاعى ؟» فألفيت الموضوع سهلا ، غير أنى لم أكد أمضى فى كتابة جملة وثانية ، حتى توقفت بغتة ، أحاول عبثا أن أتذكر كلمة«نسر» بالانجليزية!

والنسر هو بطل ذلك الفصل كله من قصة السندباد ، بحيث كان من المستحيل أن أستغنى عن ذكره ، فى ست جمل أو سبع من العشر المطلوبة .

وهممت بمغادرة قاعة الامتحان ، وقد رسخ فى بالى أن الله سبحانه لايريد لى أن أمضى فى ذلك الطريق !

وفيما أنا ألقى بقلمى الرصاص من يدى فى حركة يأس وقنوط ، وقع بصرى فجأة على صورة نسر مبسوط الجناحين ، مرسومة على قلمى ، فما تمالكت أن هتفت فى دهشة وفرح :

ـ وجدتها !

وجدت كلمة نسر ، محفورة بالانجليزية تحت صورته على قلمى !

وأقبلت على ورقة الاجابة أكتب الجمل العشر ، وفى يقينى أن الله معى ·· على الطريق ·

***

بعد عام واحد ، تقدمت ــ من المنزل ــ الى امتحان الشهادة الثانوية قسم أول · وقد استوعبت فى ذلك العام ، كل المواد المقررة على سنواتها الثلاث ، مع اشتغالى بتدريس أربع وثلاثين حصة فى الأسبوع ، الى جانب الأعمال الاضافية التى تثقل كاهل معلم المدرسة الأولية ·

وفى ذلك الشوط ، وجهت همى كله الى تعلم اللغة الفرنسية مع اللغة الانجليزية ، وحفظ مقرر الكيمياء والطبيعة ، فى المغناطيسية والكهرباء والحرارة ، من كتب (اسماعيل باشا حسنين) الثلاثة ، دون أن تكون لدى أدنى فكرة عن تجارب معملية يجريها تلاميذ المدارس الثانوية ، بل دون أن أكون قد شاهدت أى جهاز من الأجهزة التى تزود بها معامل المدارس ··

ومر امتحان اللغتين الأوربيتين بسلام ، وانما كانت العقدة فى امتحان الطبيعة :

فمن بين الأسئلة المطلوب الجواب عنها ، فهمت سؤالا واحدا فحسب ، وقدرت أنه يكفينى لأنجح به ، لو أنى أجبت عنه اجابة صحيحة كاملة ، تعطينى درجاته الست ، الحد الأدنى للنجاح فى المادة !

كان السؤال عن :

«طرق نقل الحرارة ، مع ذكر خاصية الترمس فى حفظ الحرارة» ·

وأجبت عن الشق الأول ، بما حفظته عن ظهر قلب من كتاب الطبيعة ، عن : الحمل والاشعاع والتوصيل ، ثم وقفت عند الشق الثانى ، لاأفهم مادخل الترمس ــ وقد حسبته البقل المعروف ــ فى سؤال عن الحرارة ؟

وسألت مراقب اللجنة عما اذا كان هناك خطأ مطبعى فى الكلمة ؟..

فاجاب فى حسم :

وحينئذ استنتجت أن أهل العواصم والمدن الكبرى قد يستخدمون الترمس فى ترطيب المياه الحارة ، على نحو ماقرأت عن استخدام الحصى ونوى المشمش لتنقية المياه العكرة !

ولم أتردد فى الاجابة بهذا الاستنتاج الذى هدتنى اليه فطنتى !

وأيدته بالمشهود المألوف ، من حرص باعة الترمس فى (عصارى الصيف) على رص قلل الميـاه فوق عـرباتهم ، اجتذابا (للزباين) بجرعات هنية من ماء رطبه الترمس ولطف من حرارته !

وخرجت من قاعة الامتحان ، وأنا لاأشعر بأى قلق مما أجبت ، الى أن سألتنى احدى الزميلات عن موضع اشتباهى فى كلمة «الترمس» التى سألت عنها مراقب اللجنة ؟

ولم يفتنى أنها نطقتها بضم الميم ، فحسبتها كذلك لهجة قاهرية ! وقلت لها اننى لم أكن أعلم أن الترمس ــ بكسر الميم ــ يستعمل فى المدن لتلطيف الحرارة !

صاحت الزميلة فى دهشة :

ـ أى ترمس ؟ انما السؤال عن هذا الترمس !

وأشارت الى اسـطوانة معـدنية فى يدها ، ثم فتحتها وصبت لى منها جرعة من شراب الليمون المثلج !

ولم أكن شاهدت من قبل هذا الترمس ، ولا سمعت عنه قط ..

سألتنى الزميلة «تحية ماهر» :

ـ ففيم اذن تحملون الشراب فى الرحلات الطويلة ؟

قلت وأنا أذكر متاع أبى فى رحلته السنوية الى الحرمين الشريفين :

ـ فى الزمزمية !

ولم أصدق أن الشراب المثلج الذى قدمته الى من ترمسها، قد بقى فى حر يونية ، من مطلع الشمس الى الظهيرة القائظة: لكن الزميلة أضافت ، انه لايحتفظ بدرجة البرودة فحسب ، بل يحتفظ كذلك بدرجة الحرارة للشراب الساخن ، لمدى يوم كامل !

وتطوعت «تحية» باعارتى الترمس الى اليوم التـالى ، لأجرب بنفسى خاصيته فى حفظ الحرارة !

***

آنسانى العجب ، سوء موقفى فى الامتحان ومايحتمل من رسوبى فيه . فلبثت بقية نهارى وأكثر ساعات الليل ، أمام الترمس أجربه على سوائل متفاوتة فى درجة حرارتها ، وأنا أعتقد أنه جهاز مسحور !

حتى اذا استيقنت من عجيب خاصيته في حفظ المزارة، تذكرت بغتة اجابتى المضحكة ، فتعللت بأن لجنة التصحيح سوف ترأف بي وتجبر درجتى فى الطبيعة الى الحد الأدنى للنجاح ، اذا ماتجمعت فى كشف الرصد ، درجاتى فى المواد الأخرى ، وأكثرها يصل الى النهايات الكبرى أو قريب منها !

وبهذا التعلل ، استطعت أن أكمل ماكان باقيا من مواد الامتحان !

ولعلى فى ذاك التعلل ، كنت متأثرة برؤيا تجلت لى فيها عناية الله كما تجلت فى «قلم النسر» قبل عام !

ففى استعدادى لامتحان الشهادة الثانوية ، قسم أول ، عام ١٩٣٢ أفرغت جهدى فى تحصيل المقرر علينا من دروس الانجليزية والفرنسية ، وكتب الطبيعة والكيمياء ..

وسرقنى الوقت فغفلت عن احضار كتاب «تاريخ أوربا الحديث» المقرر على السنة الثالثة الثانوية ، ولم أنتبه الىذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان .

ولم يكف الوقت لاستيعاب كل مافى الكتاب ، فساورنى ليلة امتحان التاريخ شعور بالقلق ، لم أملك حيـاله الا أن أفوض أمرى فيه الى الله تعالى .

وأخذتنى سنة من نوم ، فرأيت فيما يرى الحالم أننى فى قاعة الامتحان أقرأ من ورقة التاريخ ، أول سؤال فيها عن «مارتن لوثر وحركة الاصلاح الدينى» ..

وصحوت من غفوتى ، فلم أتردد فى مراجعة هذا الفصل الذى كان قد فاتنى من الكتاب ، واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه .

وحين وزعت علينا أسئلة التاريخ فى الصباح التالى ، لم أعجب لصدق الرؤيا ، وازددت يقينا بأن الله معى ·· على الطريق ··

من هنا كان أملى فى أن تجبر درجتى فى الطبيعة ، وعشت على هذا الأمل حتى ظهرت نتيجة الامتحان ، وقد رسبت فى الطبيعة ، ولى حق اعادة الامتحان فيها بالدور الثانى ، لارتفاع درجتى فى المجموع ·

وأديته فى شهر سبتمبر التالى ونجحت فيه ، لأروع بعد نجاحى بشائعة تناقلتها الزميلات ، عن احتمال الغاء امتحانى جملة ، لأنى تقدمت اليه بعد عام واحد من نيل الشهادة الابتدائية ، والمدة المقررة بمقتضى اللوائح ، لايجوز أن تقل عن ثلاث سنين !

وأسرعت الى ديوان وزارة المعارف ، أستعدى «سعادة مراقب تعليم البنات» على هذه اللائحة الظالمة التى لا يحل فى رأيى ، أن تطبق على تلميذة مثلى تحمل شهادة الكفاءة للمعلمات وتمارس بها التدريس فى مدارس الوزارة · وكنت قد عرفت الطريق الى سعادة المراقب ، فى آزمتين سابقتين !

وفى مكتبه بالوزارة ، وجدت عددا من رجال التعليم ، لم يكادوا يسمعون قصتى حتى راحوا يتندرون بحكاية « الترمس » التى كانت فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان !

ورب ضارة نافعة !

لقد كشفت هذه الفكاهة للأستاذ المراقب عن المشقة التى أكابدها فى عبور الطريق التعليمى ، فبادر من فوره وأمر

بنقلى من وظيفة معلمة بالمدارس الأولية ، الى وظيفة كاتبة بكلية البنات للجيزة ، وتفضل فاتصـل بالكلية تليفونيا ، ليوصى ناظرتها السويدية «مدام برج» بتدريبى على اللغتين الانجليزية والفرنسية ، واتاحة الفرصة لى ، لدخول المعمل فى بعض ساعات فراغى من العمل • كما تم ترتيب اقامتى بالقسم الداخلى فى الكلية ، مقابل مشاركتى فى الاشراف على عـودة الطـالبات الخارجيـات الى بيوتهن فى سـيارة المدرسة •

***

وعملت «مدام برج» بالوصية : فبدأت فى التحدث معى من اليوم الأول باللغتين الانجليزية والفرنسية ، ولم يكن سبق لى أن عرفت أى أجنبى أو تحدثت اليه !••

ثم كان أول ماعهدت الى به من العمل ، كتابة خطاب رسمى باللغة الانجليزية ، فى بعض الشئون الادارية •• فلما حملته اليها وأنا أتوقع أن أحظى باعجابها لتفننى فى الانشاء، لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر ، على كل ما أنفقت يومى فى كتابته ، وردت الخطاب الى ، آمرة أن أكتبه فى سطرين اثنين !

وزادت فاستدعت سكرتيرة الكلية «مس فريدة قربان» وعهدت اليها فى أن تهذب من ملبسى شبه الريفى ، وتدربنى على أنماط السلوك فى الحضر ، لأتكيف مع الوسط العـالى للكلية :

ومضت بى «مس قربان» الى حجرتى الخاصة ، فأمرتنى فورا بانتزاع «المشط البراق» الذى يمسك شعرى أن يرسل• ثم فتحت خزانة ملابسى فاختارت منها ثوبا قطنيا بسيطا كنت

أنوى ألا أرتديه الا فى ساعات خلوتى ، وقالت انه وحده الذى يناسب الكلية ، دون ثيابى الأخرى التى تفننت خياطتنا بدمياط فى حياكتها وزخرفتها !

على أن الموقف لم يبلغ ذروته من القسوة ، الا حين دعتنى «مس قربان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم ، حيث بهرنى البريق الساطع من أدوات المائدة الفضية والبللورية · ولم أكن حتى ذلك اليوم ، قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية ، ومن ثم اعتذرت عن عدم الأكل بوعكة صحية طارئة ، تحرجا من ارتباكى فى استعمال أدوات المائدة ، واشفاقا على ميزانيتى الضئيلة ، من ثمن ذلك الطعام الغالى !

وأقمت على ذلك نحو أسبوعين ، لم أذق فيهما طعام الكلية ، وانما اكتفيت ببعض شطائر من الفول والطعمية والجبن ، تعودت أن أتزود بها فى طريق عودتى بعد توصيل التلميذات بسيارة المدرسة ، حيث كنت أتخلف ساعة فى منزل الشيخ موسى قمر ، لتلقى درس فى اللغتين الانجليزية وآخر فى الفرنسية ، قبل أن آخذ طريقى الى الكلية سيرا على قدمى ، من شارع الخليج الى كوبرى قصر النيل فكوبرى بديعة — الجلاء — توفيرا لستة مليمات يتكلفها ركوب الترام ··

***

حتى استرابت «مس قربان » فى اصرارى على عدم تناول الطعام بالكلية ، مع مايبدو من سلامة صحتى ! وتطوعت فعرضت على أن تقدمنى الى « مسز جارفس » كبيرة الطبيبات ، فى زيارتها الدورية القادمة للكلية !

وأحسست كأن عقربا لسعنى !··

فما كنت قد نسيت قط صرامة موقفها منى فى الكشف الطبى ، ولعلها لــو رآتنى موظفة فى الكلية ، لأمرت بفصلى فورا من الخدمة !

ولم أجــد أمامى ســبيلا الى الفرار من «مسز جارفس» واتقاء مواجهتها ، الا أن أصارح «مس قربان» بأن الجنيهات الستة التى أتسلمها مرتبا شهريا ، يستهلكها ، حتى آخر مليم منها ، ثمن الكتب وأجــر الدروس الخصــوصية فى اللغتين الأوروبيتين • وأما المبــلغ الضئيل الذى تقتطعه آمى من مصروف البيت لتعيننى به ، فلا يكاد يقوم بالزاد البسيط الذى أتبلغ به ، فضلا عن خجلى من الجلوس الى مائدة الطعام بالكلية ، وليس لى أدنى خبرة باستعمال أدواتها الفاخرة •

وكان الرد العجيب أن موظفات الكلية لايدفعن آى أجر لما يتناولن من طعام !•• وأما مسألة استعمال أدوات المائدة فيحلها أن تتناول طعامنا فى غير المواعيد المحددة للطالبات ، الى أن يتم مرانى على الطريقة المصرية لتناول الطعام وسلوك المائدة !

وأحسست بفرحة الفرج بعد الضيق ، تشوبها حسرة على مافاتنى من غذاء شهى وسخى ، طوال الأيام التى عشت فيها على الفول المدمس والطعمية والجبن القريش !

فى ذلك العهد ، عاودنى الشوق القديم الى الكتابة فى الصحف ، وكنت أثناء اقامتى القصيرة بمدرسة المعلمات ، طالعت فى مكتبتها أعدادا من مجلة النهضة النسائية ، فبدا لى أن أبعث اليها بقصيدتى فى «الحنين الى دمياط» فلما ظهر العدد التالى وقصيدتى منشورة فيه ، تابعت ارسال قصائدى ومقالاتى ، والمجلة الغراء ترحب بها وتفسح لها صدرها !

ثم لما نزحت الى العاصمة ، لم أكد ألتقط أنفاسى بعد الشوط المجهد ، حتى تفضلت صاحبة المجلة «السيدة الحاجة لبيبة أحمد» فدعتنى الى زيارتها فى دار المجلة بحى عابدين. ولبيت الدعوة على استحياء وأنا أتهيب مقابلة هذه السيدة التى تنتمى الى الطبقة الراقية ، وكان قد بلغنى من أنبـاء حياتها ، أنها تزوجت أول مرة من «مرتضى باشا» ثم من أحد رجال أسرة «الهرميل» وأن احدى بناتها ، كانت رحمها الله زوجة لعبد الستار الباسل بك ، خلفا لفقيدة الأدب «ملك حفنى ناصف ، باحثة البادية» .

وأسرتى ليس فيها باشوات ولا بكوات !.. لا من جهة أبى ، ولا من جهة أمى ! وانما قصارى ماكنا نعتز به ، نسبنا من جهة أبى فى البيت الحسينى الشريف ، ونسب أمى فى سلالة الشيخ ابراهيم الدمهوجى ، شيخ الجامع الأزهر !.

لكن حرارة استقبال السـيدة الكريمة اياى ، أذابت تهيبى • فكررت زيارتها أحمل مقالاتى معى ،وأقوم بالمراجعة اللغوية لمواد المجلة ، وقد تكلفنى السيدة الجليلة أحيانا كتابة مقالها الافتتاحى ، فأعد هـذا التكليف شرفا لى ، وشـهادة لقلمى !

ثم بدا للسيدة الجليلة أن تستغنى ــ لأسباب لم أسأل عنها ــ عن خدمات رئيس التحرير «الأسـتاذ محمد صادق عبد الرحمن» ومدير الادارة «السيد عقل» وعهدت الى فى القيام بعملهما معا ، من عـدد أكتوبر سـنة ١٩٣٣ ، وقد أدركت بفطنتها حاجتى الى مورد اضافى ، أستعين به على مواجهة نفقات تعليمى لكى أعفى أمى من المبلغ الذى تقتطعه لى من نفقات بيتنا المحدودة المتواضعة ••

وكنت من قلة الخبرة بالدنيا والناس ، بحيث رحبت بتلك الفرصة ، وأكبرت من السيدة المجربة أن تجد فتاة من الأقاليم مغمورة مثلى ، تعبر المرحلة الثانوية للتعليم ــ أهلا لأن تتولى عبء المجلة كله ، نظير أربع جنيهات فى الشهر ، كانت فى تقديرى مكافأة سخية على كتابة بريد المجلة ، واعداد موادها للطبع ، وتصدير كل عـدد منهـا بمقال افتتاحى أتفنن فى انشائه وأوقعه باسم السيدة الكبيرة صاحبة المجلة ! ثم أحمل المواد كل شـهر الى مطبعة حجازى بالجمالية ، لأعـود مـرة فأصححها ،وأخرى لأتسلم أعدادها ــ نحو ألفين ــ مطبوعة وأنقلها فى عربة خيل الى مقر المجلة فى حى عابدين ، وأكتب عناوين المشتركين على غـلافها ، ثم أحملها على دفعـات الى صندوق بريد المطبوعات على ناصية شارعى خيرت والمبتديان • وأتابع حركة البريد وتسديد الاشتراكات ، وأحتفظ بما يرد منها حتى تعـود السيدة الحـاجة من رحلتها السـنوية الى

الحجاز ، حيث اعتادت أن تقضى هناك نحو ستة أشهر ، مطمئنة الى اخلاصى فى القيام على شئون مجلتها ، وراضية كل الرضى عما أكتب باسمها من مقالات افتتاحية رصينة !

وكنت كذلك ، راضية تماما عن هـذه التجـربة التى أشبعت هوايتى القديمة للكتابة ، ودربتنى عليها ، وهيأت لى مع ذلك كله مكافأة شهرية ثابتـة ، تبلغ ثلثى المرتب الذى أتقاضاه من وظيفتى الرسمية فى كلية البنات !

* * *

وتقدير السيدة الكريمة لأسلوبى ، هو الذى أغرانى بأن أرسل بعض قصصى الى الصحف اليومية والى مجلة الهلال التى كانت فى ذلك الحين تنشر لأعلام من كتاب الجيل · وقد نشرت لى صحيفتا البلاغ وكوكب الشرق ماأرسلت اليهما من قصص قصار ، وأما مجلة الهلال فأعادت قصتى الى ، مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان» ·

فى تلك الأيام على التحديد ، عندما بدا لى أن أتجاوز لقلمى نطاق المجلة الشهرية المحدودة التوزيع ــ حيث لااحتمال لأن تصل الى محيط والدى والأسرة ــ الى الصحف اليـومية والمجلات الكبرى ، فكرت فى التستر وراء اسم مستعار ، لئلا يعلم أبى بالأمر فيغضب وينكر ويصدر قرارا يحرم فيه على مكاتبة الصحف والاتصال بها ، وذلك مالم تكن تقاليد البيئة والجيل ، تسوغه لحريم العلماء !

ولم يطل بى التفكير فى اختيار الاسم المستعار ، بل كان أول ماخطر على بالى هو أن أنتمى الى الشاطىء ، مهد مولدى وملعب طفولتى ومدرج حداثتى ومجلى تأملاتى ، والمسرح الذى شهد مأساة فاجعة قيدتنا اليه بقيود لا فكاك منها ··

وفيما كنت أمارس هواية الكتابة ، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وعبء تحرير « مجلة النهضة النسائية » وادارتها ، تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا، وتقدمت لامتحانها من المنزل .

وهكذا مشيت على الدرب الوعر ، فكلما قطعت شوطا منه تقدمت الى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستى كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لى ..

وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية ، التى أقامت الحواجز والسدود ، فى طريق مثلى ، الى الجامعة !

حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب ، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة ، الى باب الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا أدبى) التى ظفرت بها صيف عام ١٩٣٤ ، مع قلة من الناجحين : من منازلهم ...

وهنـاك ألفيت الباب موصـدا فى وجهى بقضبان من فولاذ !

كنت على يقين من استحالة دخولى الجامعة طالبة منتظمة، كيلا أبوء بلعنةٍ من غضب والدى الذى ماشككت فى انه بحيث يبرأ الى الله منى لو فعلتها !

لكنى طمعت فى أن ترق الجـامعة لحالى بعد أن تسـمع حكايتى ، فتأذن لى فى تحصيل مقررات قسم اللغة العربية ، على أن أؤدى تباعا كل عام ، امتحان السنوات الأربع لدرجة الليسانس ٠

وهذه هى اللوائح الجامعية لاتعترف بنظام الانتساب !

وهـؤلاء هم حـراس اللوائح ، يتبسمون ضاحكين من قولى ، ويتندرون بسـذاجتى التى ابتدعت فكرة التقـدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم) !

ولمدى عام كامل ، بقيت واقفـة تجـاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم !٠٠

لم يكن قد بقى لى الا أن أنكص على عقبى وآكر راجعة من حيث أتيت ٠٠

لكنى لم أفعل !

فهل كان اصرارى على الوقوف هروبا أحمق ، من مواجهة صدمة الخيبة بعد كل الذى كابدت ؟

أو كان استجماعا لقواى ، تأهبا للجـولة الجـديدة فى المعركة ، بعد أن أجهدتنى الجولات السابقات ؟

لم أكن أدرى على وجه اليقين •

وان أحسست أن هناك قوة خفية وراء أبعاد المنظور ، تقيدنى الى ذلك الباب الموصد ، وتحول بينى وبين طريق الرجوع !

***

وفى عام الانتظار الطويل ، تعرضت لجواذب خارجية مضادة ، كانت تشدنى بعيدا عن باب الجامعة ، وتزين لى الانصراف عنه :

فهناك فى بيتنا ،

كان أبى قد استنفد طاقته من طول البال ، ولم يعد فى امكانه أن يرخى لى مزيدا من حبال الصبر ـ بعد أن يئس من احتمال زهدى فى العمل المدرسى وتوبتى عن اثم الخروج من البيت ـ فهو لايكف عن الكلام فى موضوع خطبتى لشاب من أبناء زميله «الشيخ ابراهيم مصبح» منكبار الشيوخ العلماء، رآه والدى كفئا لمصاهرته !

وفى مجال العمل ،

كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتى الى سكرتيرة لكلية البنات ، أرقى معهد حكومى لفتيات الطبقة الراقية ، كما رفعت مرتبى الشهرى من ست جنيهات الى سبعة ونصف ، لا أدفع منها قرشا ، مقابل اقامتى وطعامى بالكلية •

وفى الحياة العامة ،

كانت أضواء المجد الأدبى تلوح على أفقى ، منذ نشرت

لى «جريدة الأهرام» فى صفحاتها الأولى مقالاتى عن الريف المصرى وقضية الفلاح ، وقد توثقت صلتى بالجريدة الكبرى من يوم أن أرسلت اليها مقالى الأول ، صيف سنة ١٩٣٥ ، فلم تكتف بنشره فى صفحتها الأولى ، بل اتصل بى سكرتير التحرير «الأستاذ نجيب كنعان» يدعـونى لمقـابلة صاحب الجريدة «جبرائيل تكلا بك» الذى رحب بى وضمنى الى أسرة التحرير ، بتوصية من «الأستاذ أنطون الجميل» الذى قرأ مقالى قبل سفره الى أوروبا فى ذلك الصيف ، وأشر عليه بالنشر ، وأوصى بالبحث عنى وضمى الى أسرة التحرير .

ومن عجب أنى عصيت على كل تلك الجواذب والمغريات ، وبقيت واقفـة حيث انتهى بى الشوط عنـد باب الجامعـة الموصد ، لا أبغى عنه حولا ، وكأنى مشدودة اليه بأمـراس لاتنحل ، وقيود لاتلين !

وعبثا حاولت الرجوع الى الطريق الأول ، التماسا لرضى والدى وهو أعز ما أدخره لدنياى والآخرة ...

وعبثا حاولت التشاغل بالتطلع الى الأفق الجديد الذى يعدنى بالشهرة والمجد الأدبى ..

وهاجس خفى يلقى فى روعى ، أننى فيما سلكت من طريق الى الجامعة ، وفى اصرارى على الوقوف عند بابهـا المغلق ، انما أنفذ مشيئة عليـا لا سلطان عليها لأحـد من البشر !

والأمر فيما بقى ، متروك لتلك المشيئة العليا ، التى تملك وحدها أن تقرر مصير هذه الجولة ، وتوجه ارادتى الى حيث أراد الله لى !

وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر ،

فى دوامة القلق والحيرة ، فيحميني من السكون الى راحة اليأس .

كما كان يردني الى شيء من سكينة النفس وراحة الضمير ، كلما ساورني الخوف من عاقبة مخالفتي ، خفية ، أمر والدى التقى الصالح ، واتجاهي الى طريق غير الذى رضيه لى ووجهني اليه .

ولو شاء سبحانه لصرفني عن هذا الطريق المسدود ، ولما حدت من الطريق الأول الذى خطه لى أبى ، مذ كنت وليدة فى المهد .

وما كنت ، لولا مشيئته تعالى ، لأستطيع أن أجتاز وحدى تلك المفاوز الضيقة والسدود الصعبة والمنحنيات الخطرة ، على طريق تائه المعالم ملتوى المسالك خابى المنارات ..

كلا ، ولا كان فى طاقتي أن أقتحم التيه الموحش فى خضم الدنيا ، بلا زاد للرحلة مع المخاوف والهواجس والظنون .

غير اخلاص البذل فى طلب العلم ، وهذا اليقين بأن الله سبحانه معى فى مسعاى ..

***

الى هنا ، ينتهي بى الشوط الطويل المجهد الذى قطعته على دربى ، من جوار المعهد الدينى فى جامع البحر على الشاطىء الشرقى للنيل بدمياط ، الى وقفتي عام ١٩٣٥ أمام باب الجامعة الموصد ، لاأستطيع أن أنفذ منه ..

ولا أملك فى الوقت نفسه أن أحيد عنه وآخذ طريق الرجوع ..

وعنده ينتهي هذا الفصل من حكايتي ، قبل أن نلتقى !

فى الطريق اليه !

لم أكن أدرى كنه هذه القوة القاهرة التى تدفعنى الى أن أحيد من الطريق الذى حدده لى والدى وأعدتنى له بيئتى ، الى ذلك الطريق المضاد الذى يصل الى «الجامعة» وهى التى ينفر قومى من مجرد سماع اسمها ، ويرثون لكل من جذبت اليها من الطلاب ، وكأنها بدعة منكرة أو رجس من عمل حزب الشيطان !

وربما تناهى اليهم نبأ عن بعض مايدرس فى الجامعة من علم ، فيلوون رءوسهم وهم يحـوقلون ، ويستغفرون لذنب الذين جنوا على شباب الأمة فصرفوهم عن العلم الحق فى تراث السلف الصالح ، وعلموهم ظاهرا من الحياة الدنيا ، وألقوا بهم صيدا سهلا بين ذرائع الزيغ والضلال !

والغريب فى الأمر ، اننى لم أحـد من طـريقى الأول زهدا فيه أو ضيقا به ونفورا منه ، بل لعلى كنت أقـرب الى الزهو بما أتيح لى من اتصال به والمباهاة بما استطعت اجتيازه من مراحله ، والاعتزاز بما نهلت من نبعه السخى .

ولم يحـدث قط أن فتنت عن قديمى ، بالجـديد الذى تعلمته من كتب العلوم العصرية لمراحل الطريق الى الجامعة ، بل كنت كلما تقـدمت خطوة على الطـريق ، ازددت ادراكا

لقيمة الرصيد الثمين الذى يمنحنى سمة أصالة وتفرد بين بنات جيلى !

لقد استطعت بمـا تزودت به من طاقة على الدرس أن أحصل (علوم المدارس) وأؤدى أربع امتحانات عامة بنجاح ، وما من واحدة من (طالبات المدارس) تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه ، التى درستها فى بيتنا • ولطالما حرصت على التلكؤ فى قاعات الامتحان الشفهى ، بعد دورى فى أدائه ،لأتفرج على الزميلات وهن يتعثرن فى تلاوة آية قرآنية من قصار السور ، ويقرأن النص من الشعر أو النثر قراءة مضحكة مبكية ، تمسخ النص أعجميا

كذلك لم أكن بحال ما ، أستهين بمخالفتى لما يريد لى والدى العالم الورع المتصوف ، بل لعلى كنت أوثر أن أموت ولا أعصى له أمـرا فى السر أو العـلن ، وقـد كانت بيئتى تتناقل حكايات عن كراماته ومناقبه ، ويكفى أن أذكر منها ، مالم أنسه قط ، من محنة جد والدتى ، وقد عشـتها معه ، أسمع من أهل البلدة أن الحادث الأليم لم يكن الا عاقبة غضب أبى ، فتضنينى الحسرة وترهقنى عقدة الشعور بالذنب •

ويروعنى أننى ، مع ما أعلم من سر أبى الباتع ، أمضى فى طريق لايرضى عنه ، وأحيد عما يرضيه !

فى ذلك الجو النفسى المشحون بهواجس القلق والخوف ، المثقل بعقدة الاحساس بالذنب ، تابعت خطواتى الى الجامعة وأنا أحاول أن أستجلى كنه تلك القوة الخفية التى تسـيرنى وتوجهنى ، فلا أجـد لها تفسيرا الا أنهـا ارادة الله الغالبة ومشيئته النافذة •

وطال بى الوقوف على باب الجامعة ، دون أن يتخلى عنى ايمانى بأن «الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا»

* * *

وانقضى العام كله ، وباب الجامعة موصد فى وجهى ٠

وجـاء فوج جـديد من حملة البكالوريا عام ١٩٣٥ ، يقدمون أوراق التحاقهم بالجامعة ٠ فوقفت أرقبهم ضائعة الحيلة ، حتى اذا حـل اليـوم الأخير المحـدد لقبول أوراق الالتحاق ، ذاب جمودى بغتة ، وتحركت فأخذت مكانا لى فى نهاية صف المتقدمين ، وكل همى أن أقيـد اسـمى فى كلية الآداب قبل أن تفوت الفرصة ، ثم أدع مابعـد ذلك لمشيئة الله تعالى ٠٠

وهون الموقف على ، مافهمته من أن الأساتذة هم الذين يقررون ما اذا كان الطالب قد استوفى النسبة المقررة لحضور المحـاضرات أو لم يسـتوفها ، ويقتصر عمل الادارة عـلى الاجـراء التنفيذى ، فى الاذن للطالب بأداء الامتحـان أو حرمانه منه ، تبعا لما يقرره الأساتذة ٠

ومن ثم اتجهت محـاولتى ، الى أن أتسلل من مسـكنى القريب فى كلية البنات بالجيزة ـ قبل انتقالها الى الزمالك ـ على بعد خطوات من كلية الآداب ، فأحضر لكل أستاذ عددا من الدروس ، يكفى لاثبات وجـودى ! وكنت على يقين من أن الأمر بالنسبة الى مواد اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، أيسر من أن أشغل نفسى به أو أحمل همه ، اذ يكفى أن أحضر درسا واحدا لكل أستاذ ، ثم أفرغ منه الى يوم الامتحان !

لكن فريقا من زملائى ، تحدونى أن أستغنى عن كلمة واحدة من دروس الأستاذ الخولى فى البلاغة والتفسير ، على

مدى السنوات الأربع ! فكنت أدارى شعورى بالرثاء لضعفهم، وأقابل تحديهم بنوع من الاستخفاف !

* * *

وكنا في السنة الأولى ، نحضر مجتمعين في المدرج الكبير، كل المحاضرات المقررة علينا فيما عدا اللغة العربية واللغات الانجليزية والفرنسية واللاتينية ، التى توزعنا فيها أقساما فى محاضرات خاصة .

ولم يكن من حظى أن أتتلمذ على الأستاذ الخولى فى السنة الجامعية الأولى ، لكن زملائى الذين درسوا عليه ، ومعهم كل طلاب قسم اللغة العربية ، لم يكونوا يملون الحديث عنه ، والشكوى من صرامة منهجه وجبروت شخصيته ، وقسوة مؤاخذته على أى خلل فى المنطق أو خطأ فى التفكير أو قصور فى التعبير . فأتمنى لو أن ظروفى أسعفتنى على حضور دروسه ، كى أبهر هؤلاء الطلاب بما تصورت ،لفرط سذاجتى وغرورى ، أننى بلغته من علم أستاذهم الكبير !

لقد حضرت عددا من المحاضرات الجامعية فى النحو والعروض والأدب والتاريخ الاسلامى ، فما وجدت قط جديدا لم أكن قد تعلمته فى مدرستى الأولى بالبيت . وتفضل الأستاذ الجليل «مصطفى السقا» فأعفانى من حضور درسه فى النحو والصرف ، لما رأى من تفاوت مستواى عن بقية المجموعة التى كان يدرس لها . كما رحب «الدكتور حسن ابراهيم حسن» بعذرى فى التخلف عن محاضراته بسبب ظروفى القاسية ، بعد أن حضرت له درسين جرؤت فيهما على تصحيح آيات من القرآن الكريم كانت تتلى من كتاب السيرة على غير وجهها الصحيح فى التلاوة ، معتذرة بحرمة كلمات الله ، عن جرأتى فى رد أى خطأ فى قراءتها .

فماذا عسى الأستاذ الخولى أن يقدمه لى فى البلاغة والتفسير ، وقد تلقيتهما على شيوخ كبار من علماء هذه البضاعة ؟!

وقيل لى : انه صاحب منهج !

فهززت رأسى فى غير مبالاة ، وكلمة المنهج لاتعدو عندى أن تكون تسمية محدثة لما درجنا على تسميته بالمذهب أو الطريقة ، ومبلغ علمى أن «كل شيخ له طريقة» وانما يفتتن غيرى من الطلاب بكلمة المنهج الرنانة الفخمة ، لأنهم لم يقرأوا شيئا لشيوخ البلاغة وأعلام المفسرين ، من أمثال «السكاكى والقزوينى والسبكى ، والطبرى والزمخشرى والرازى والقرطبى وأبى حيان ..» هؤلاء الذين طالت صحبتى لهم فى كتبهم الصفراء التى يعيى طلاب الجامعة أن ينظروا فيها !

وكنت فى المرات القليلة التى ترددت فيها على الكلية خلال العام الأول ، ألمح «الأستاذ الخولى» من بعيد بين حين وآخر ، فى ردهات الكلية وأبهائها ، بزيه اللافت وسمته المهيب وملامحه المتفردة ، يحف به دائما عدد من تلاميذه شبه مسحورين ، وقد أخذوا معه فى حوار متصل ..

فلا أتصور بحال ما ، أن هذا الأستاذ غريب عنى ، وأظل أفكر طويلا : أين ومتى ياترى لقيته من قبل ؟

ثم لا أجد تعليلا لهذا الشعور الواثق من سبق معرفتى به ، الا أن أفترض أنه ينتمى الى بيئة كتلك التى أنتمى اليها ، وقد وصل مثلى الى الجامعة ، عن غير طريقها المباشر .

وأزداد يقينا بأن علمه الذى بهر الطلات فى الجامعة ،

مستمد من نفس النبع السـخى الذى طالما نهلت منه حتى خيل الى أنى ارتويت !

وأملى لى الزمن عاما بأكمله ، سادرة فى أوهام غرورى بما عندى من بضاعة القوم ، مباهية بقديمى الأصيل الذى ماتصورت أن الأستاذ الخولى يمكن أن يضيف اليه جديدا من عنده ..

ماضية فى طريقى اليه ، وما أرتاب فى أنى عرفته من قبل أن ألقاه !

فى منطقة الضباب !

ما أزال أكتب من بعيد •

مطلة من وقفتي على الجسر ، على آثار خطاى قبـل أن ألقاه •

اذ أغذ السير فوق دربي ، عبر المفاوز الحرجة والمنحنيات الخطرة ، في طريق تائه المعالم خابي المنارات •

بغير زاد الا الهواجس والمخاوف والظنون

وبغير دليل الا اليقين بأني أسير موجهة بمشيئة عليا ، اصطفتني لتجـربة صعبة تمتحن بهـا طاقتي على الصـمود والاحتمال •

وتبلو مدى استعدادي لاجتلاء السر المحجب ، المضنون به على غير أهله !

* * *

ولم أستبعد ، بعد عامي الأول في الجامعة ، أن تكون تلك التجربة هي أن أتعرض لما يخشاه قومي من فتنة الجامعية وغوايتها •

ابتلاء لجلاء بصيرتي وقدرتها على التمييز بين الجـوهر والعرض ،

لأعود فأسلك طريق الحق ، أرهف حسا وأصفى وجدانا، وأقدر على احتمال مايكابده «أهل الطريق» من مشاق الرياضة وتكاليف المجاهدة !

وكنت حتى تلك المرحلة ، أتعامل مع الدنيا بمنطق بيئتى المتصوفة ، وأتلقى العلم بعقليتها ، وأمارس الحياة بذوقها ومزاجها ، وأفسر الوجود بمنهجها الاشراقى الملهم ..

ولم يخذلنى هذا المنطق فيما واجهنى من مواقف حرجة وأسرار غامضة ، فى طريقى الى الجامعة ..

كمثل موقفى يوم تهيأت لمغادرة قاعة الامتحان فى الشهادة الابتدائية ، فى يأس وقنوط ، ثم انفرجت الأزمة بقلم النسر ..

ومثل الرؤيا الصادقة فى امتحان التاريخ بشهادة الكفاءة الثانوية ، لم أعجب لصدقها ، وانما كان عجبى لهؤلاء الذين يجحدون منطقنا الملهم ، فى آفاقه الرحبة وراء أبعاد الواقع.

الى ذلك المدى ، كنت متأثرة بعقلية بيئتى ، خاضعة لسلطان وجدانها ، مأخوذة بمنطها ..

فلما وصلت الى الجامعة ، تطلعت الى جديد علمها وفى حسابى أنها سوف تحاول أن تشدنى بعيدا عن منطقة الجاذبية للقديم الذى جئت به !

وتوقعت أن أواجه عداءها السافر لمنهجنا الاشراقى ، وأن تقدم لى من محدث منهجها فى المعرفة ، ماتحاول به أن تنسخ المنهج الذى زودتنى به بيئتى وراضتنى عليه ..

لكن عاما كاملا مضى ، دون أن تقدم لى الجامعة ذلك البديل المتوقع .

وكان حصاد ذلك العام الأول : عزلة نفسية وفكرية عن هذه الجامعة التى تلوح من بعيد «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا» ·

وما أدرى ، هل كانت الجامعة مسئولة وحدها عن تلك العزلة ؟ أو أننى التى جئتها محصنة من بيئتى الأولى بمناعة تجعلنى أعصى على هذه البيئة الجديدة وأقاوم الاستجابة لها ؟

أيا ما كان الأمر ، فالذى لم أشك فيه هـو أن الجامعة عجزت فى ذلك العام الأول عن أن تشدنى اليها ·

وأحسبها كذلك أرهفت ما فى أعماق ضميرى من حرص كامن على ألا أخون «العهد» الذى أخذته على والدى · وشحذت خفى تأهبى لمقاومة كل سحر من بضاعة العاصمة التى نزحت اليها من الأقاليم ، وأقمت حواجز عازلة بينها وبين ذاتى ، كى أصـونها من المسخ والتشـويه ولا أفقـدها فى ضجيج الزحام !

وتضاعف شعورى بالغربة الفـكرية ، وأنا أتنقل بين قاعات الدرس على مدى العام ، أحاول عبثا أن أكتشف مالدى الجامعة ، مما عسى أن ينسخ قديمى الأصيل ، أو يقـدم لى بديلا مقنعا من المنطق الاشراقى الصوفى الذى لم يخذلنى فيما مضى ·

والذى كنت أخشاه من ضغطة الصراع بين عطاء بيئتى وجديد الجامعـة ، لم يلبث أن انجـلى عن معركة وهمية فى منطقة السراب !

فبقدر ماأعطتنى بيئتى منهجها ميراثا وعقيدة ، قدمت لى الجامعة منهجها المحدث تلقينا آليا لاينفذ الى ماوراء ظـاهر السمع !

وبقدر مازودتني بيئتي بثقافتها دراية ووعيا، ورسختها في عقليتي بسلطان الوجـدان المؤمن ، وقوة اليقين بأنهـا العلوم التي يعرف بها الاسلام ويصح الدين ،

عرضت الجامعة علومها القاء وترديدا ، بمنأى عن منافذ التأثر الوجداني ومداخل الاستجابة الروحية ..

وبقدر مانجحت مدرستي الأولى في وصل دوائر معارفها والربط بين علومها بما يحقق لها من التكامل مايجعل كل علم في خدمة العلوم الأخرى ، ولايستغني في الوقت نفسه عن خدمة أي علم منها ..

عجزت الجامعة عن اقناعي بوجود أي نوع من الصلة بين هذه المواد المقرر درسها علينا في السـنة الأولى ، تلقيناها دوائر منفصلة منعزلة ، لاتتقارب ولا تتماس ، اللهم الا ذلك التقارب الشكلي الساذج الذي يضع درس اللاتينية الى جانب درس الفلسفة الاسلامية في جدول المحاضرات ، أو تربطه وحدة القاعة التي تتلقى فيها درسا في البـلاغة العربية ، يتلوه درس باللاتينية في حروب يوليوس قيصر في بلاد الغال، أو يفتعل مناسبة ملفقة لاقحام اسم «أرنولد» مثلا في درسنا التاريخ الاسلام في عصر المبعث ، أو اقحام اسم «نيكلسون» في تأريخنا للأدب العربي القديم !

وبقدر ماقدمت لنا المدرسة القديمة معلميها وشيوخها ، مجموعة متآلفة منسجمة لأسرة ذات طابع موحد ، سمتا وزيا وعقلية ومزاجا ..

عرضت علينا الجامعة أعضاء هيئة التـدريس في كلية الآداب ، خليطا شـاذا ينتمي الى بيئات متباعدة متناكرة ، ويحمل بصماتها الصارخة من التناقض والتنافر ..

وخيل الى ، بعد أن اجتزت امتحان النقل الى السنة الثانية من قسم اللغة العربية ، أننى على وشك أن أصفى حسابى مع هذه الجامعة ، بحيث لايبقى بينى وبينها الا أن أؤدى لها امتحانا مابين عام وآخر ، حتى أعبر المرحلة كما عبرت ماقبلها من مراحل ..

دون أن أخشى محاسبة على حضور وغياب ، فلقد اكتشفت أن نص اللائحة على نسبة الحضور ، صورى معطل ، فما كان يعنى الادارة أن تسأل عمن حضروا أو غابوا ، وانما كان الذى يعنيها فحسب ، أن تستوفى دفع الرسوم والمصروفات ، فلا يباح لطالب أن يدخل الامتحان ، الا بصك سداده لهذه الرسوم والمصروفات !

ولست أذكر عدد من حيل بينهم وبين دخول الامتحان ، من رفاق دفعتى ، لعجزهم عن سداد الرسوم الجامعية .

وانما الذى أذكره ولن أنساه ، أن «زميلى عبد الحكم الجراحى» تخلف كذلك عن أداء الامتحان لعذر قاهر !..

سقط شهيدا عند «كوبرى عباس» برصاص الانجليز ..

وأريد للجامعة أن تستأنف الدراسة بها بعد مصرعه ومصرع زميله الشهد عبد المجيد مرسى ، وكأن الرصاص الذى اغتالهما ذهب صداه مع الريح !

ولم يكن أمامى ، قبل تصفية حسابى مع الجامعة ، الا أن أكشف ما عند «الأستاذ أمين الخولى» من علم يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه !

وأن أفرغ من هذه الشخصية الأسطورية التى أخذتهم أخذ السحر وتسلطت عليهم بجبروتها الآسر ..

وانتظرت موعدى معه لألقاه فى درسه الأول للقـرآن بالسنة الثانية ، وهاجس خفى يلقى فى يقينى أنه اللقـاء الحاسم الذى تتم به التجربة ويبدأ منه انطلاق خطواتى على معارج الطريق الواصل الى الحق ٠

بعد أن تنجاب عن الأفق سحب الوهم وتنكشف الظلال ٠٠

***

وفى انتظار الموعد المرتقب ، عكفت طوال أشهر الصيف على مراجعة ما فى خزانة بيتنا من كتب علوم القرآن والبلاغة استعدادا للقائه ، وقد زين لى الغرور أننى باستيعاب تلك الكنوز ، أكون ندا لهذا الأستاذ الذى حسبته بهر تلاميذه بما نهل من نبعنا الذى حجبوا عنه !

وكان والدى يـرانى مسـتغرقة فى الدرس ، فتتألق أساريره الطيبة بنور الرضى وراحة الطمأنينة ، لما يشهد من بوادر انصرافى عن باطل غرور المحدثين ، الى جوهر العلم الحق !

ويدعو الله أن يتم نعمته ، وأن يأخذ بيدى هاديا ، على الطريق ٠

وأسمع دعاءه فيرق قلبى له ، وأعجب للطف المشـيئة الالهية التى حجبت عن بصيرته الكاشـفة الملهمة ، تجـربة ابتلائى بالجامعة ٠

وأحس أننى ماكنت قط أقـرب اليه ، منى فى هـذه الخطوة الفاصلة بين مفترق الطريق ، توشك أن تبلغ بى نهاية الشوط وتحسم الأمر كله باللقاء الموعود ٠٠

ظلال .. وأضواء

لم يكن فى حسابى قط ، أن أجد نفسى بعد عامى الأول فى الجامعة ، واقفة فى مفترق من الطــرق لا أدرى الى أين أتجه ·

وقد امتــلأ الأفق أمامى بخليط من ظــلال وأضــواء متداخلة ، تحير البصر وتحجب الرؤية ·

بعد ان ظننت ، أن ليس بينى وبين مرحلة الانطلاق ، سوى خطوة واحدة ألقى فيها «الاســتاذ الخولى» ثم أصــفى حسابى مع هذه الجامعة التى انكشفت لى بعد تجربة عام ، عن ظل متضخم فى منطقة السراب ··

***

وكنت أقضى عطلة ذلك الصيف ، من عام ١٩٣٦ ، فى قرية والدى «شبرابخوم» من ريف المنوفية ، حيث تعودنا ان ننزح اليها من دميــاط كل صيف ، فى عطــلات المعــاهد الدينية ·

وقد توجست خيفة ، حين عرفت أن القــرية تعلم أنى دخلت الجامعة ، وتعلم كذلك أننى التى تكتب فى «الأهرام» عن الريف والفلاح ، بالتوقيع المستعار : بنت الشاطىء ·

سمعت القرية بذلك كله ، من اثنين من جــيراننا بها : «الأستاذ أحمد الشايب» وكان زميــلا لوالدى فى مراحــل الدراسة الأولى ، وقد تخرج فى مدرسة دار العلوم واشتغل

بالتدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية بالاسكندرية ، ثم نقل قبيل وصـولى الى الكلية ، مدرسـا فى قسم اللغـة العربية !

الطالب بالسنة الثالثة فى القسم ، من أحفـاد الشيخ يوسف شلبى الشـبرابخومى ، عالم الاقليم ، ومن أعيـان مشايخ الوقت ·

ولكن أهل القرية كانوا كراما ، فلم يتطوع أحد منهم بالخوض فى سيرتى بمجلس والدى ، وكأنما تواصـوا فيما بينهم ، دون تدبير أو اتفاق ، على أن يحمونى من غضب أبى، ويحموه من صدمة مصابه فى ابنته التى وهبها للعلم الدينى وحده ، منذ كانت وليدة فى المهد ·

وأحسست أن القرية تقف الى جانبى ، تبارك طموحى وتؤيد مسعاى ، وتعتز بكل ما أكتب عن مأساة الريف وقضية الفلاح ·

وكانت صلتى بجـريدة الأهـرام قد بدأت فى مستهل الصيف الذى مضى ، بمقالى الأول عن فلاحنا المظلوم ··

ثم تتابعت مقالاتى عن الريف فى «الأهرام» على مدى ذلك العام ، وفى ظنى أن قومى فى دميـاط وشبرابخوم ، ليسوا بحيث يربطون بينى وبين ذلك الاسم المستعار الذى تذيل به المقالات !

فلما اكتشفت أن القـرية تقف الى جانبى ، بعـد أن عرفت سرى ، زادنى هذا الموقف ارتباطا بالريف الطيب ، وعزلة نفسية عن المدينة وأهلها ·

وقيدنى بدين باهظ ، أن أتابع السير والجهاد ، حتى

أكشف عن زيف المدينة وخوائها ، وأمزق الأقنعة عن وجهها القبيح وروحها الهامدة وحسها الأصم وضميرها الميت !

مطمئنة الى انني محصنة من فتنة المدينة وغـوايتها ، بمناعة زودتني بها الأرض الطيبة ٠

***

وكانت تجربتي مع العاصمة ، تعطيني هذا الاطمئنان :

لقـد جـربت معي كل حيلها وأفانينها ، فعصيت على غوايتها ولم أشعر في أي لحظة بأنني أنتمي اليها ٠

كنت أقيم بها ، بحكم عملي فيكلية البنات الأرستقراطية، في قصرها الفخم ، أتناول طعامي في أطباق الليموج على موائد أنيقة تتلألأ ببريق الكريستوفل والكريستال ٠٠

وأحن مع ذلك الى عيشتنا البسيطة في بيتنا العتيق على شط النيل بدمياط ، ودارنا الريفية المتواضعة في أعمـاق المنوفية ٠

وكان لي بجريدة الأهرام مكتبي الخاص في غرفة رئيس التحرير ، «الأستاذ أنطون الجميل» حيث ملتقى الأقطاب من رجال السياسة وأعـلام الفكر والأدب ، وأنا غـريبة بينهم أعيش بكل خواطريمع قومي الكادحين فيالحقول والشطوط، وأتسمع على البعد لهاث الظامئين منهم وأنين المرضى والجياع وجؤار الشاكين والمحرومين ، وأصغي بكل وجداني اليأصداء بعيدة شجية ، من أغاني الرعاة والزراع ، ومواويل البحارة والصيادين !

وأتنقل بين مدرجات الجامعة الشامخة وأبهائها الرحبة،

وحقيبتى مـلأى بالكتب العصرية الأنيقة ، وأنا مشـدودة بروابط نفسية وروحية الى مقعدى الخشبى فى خلوة والدى بجامع البحر ، والى مجلسى على حصير بال فى كتاب « سيدنا الشيخ مرسى » بقرية شبرابخوم ، وأثمن ما أمتلكه مصحف شريف ولوح من صفيح وقلم من غاب !

كلا ...

لم تستطع المدينة أن تغوينى بسحرها الخلاب ، وانما أنا فيها غريبة نازحة ، أراها قد أترعت كأسها بما امتصت من عرق الكادحين من قومى ، وأتخمت معـدتها بما نهشت من ثمار كدهم ، وازدهت متلألئة بما سلبت من نور حياتهم ، واغتصبت خيرات أرضهم الطيبة لتتخذ منها زينة ولهوا ..

* * *

وتصورت عنـدئذ أن الطـريق أمامى بدأ ينكشف ، لأخوض معركتى مع المدينة بعد أن تمادى بها الشر ، فاهدرت حرمة الدرجات العلمية التى كانت كل مابقى لى منها :

ففى ذلك الصيف من عام ١٩٣٦ ، بدأنا العطلة بعد أن أعلنت الجامعة نتيجة الامتحان ، وعلقت كشوفا رسمية بهـا على لوحات فى مداخل الكليات .

ثم اذا بحزب الوفد الحاكم ، يغضب لرسـوب كثرة من أنصاره ودعاته ، وهم ماشـغلوا عن الدرس والتحصيل الا بالعمل الحزبى المجيد !

واذ رأى الحزب استحالة تزييف النتائج الرسمية بعد اعلانها ، عمـد الى البرلمان ، وله فيـه الأغلبية الغـالبة ، فاستصدر قانونا «شرعيا» يهبط بالحد الأدنى لنسبة درجات النجاح فى امتحانات الجامعة من ٦٠٪ الى ٥٠٪ ، على أن يسرى

ذلك القانون المحترم بأثر رجعى ، على نتائج الامتحانات التى أعلنتها الجامعة رسميا ، قبل شهر أو بعض شهر .

وظهرت الصحف ، غداة صدور القانون من البرلمان الموقر ، وقد امتلأت أعمدتها بحشد كاثر من أسماء الطلاب الذين قضت الجامعة برسوبهم ، وقضت الأغلبية البرلمانية المبجلة للحزب الحاكم ، بنقض قرار الجامعة ، ونقلتهم بقوة القانون من صف الراسبين الى صف الناجحين !

ومع خيبة رجائى فى الجامعة ، وعزلتى النفسية والفكرية عنها ، بعد عامى الأول بها ، غضبت لذلك العدوان الصارخ على حرمة الامتحان الجامعى ، وأنكرت شرعية الحق الذى اغتصبه البرلمان ، فقرر نجاح طلاب حكمت الجامعة برسوبهم .

وفكرت فى أن أنسحب نهائيا من ذاك السباق ، بعد أن عبثت الحزبية بقيمه ومقاييسه !

وسيطرت على بالى فكرة الانسحاب ، فلم أستطع لمدى أيام ذات عدد ، أن أقرأ كلمة واحدة فى كتب التفسير والبلاغة التى كنت عاكفة على مراجعتها واستيعابها ، استعدادا للقاء «الأستاذ الخولى» بعد عطلة الصيف .

لكن ، كيف أنسحب قبل أن تتم التجربة ؟

فى النفس شىء من هذا الانسحاب ، ولم ألق هذا الأستاذ لأدرك سر شعورى الواثق بأنى عرفته قبل أن ألقاه ..

ولكى أكشف مالديه من علم ، يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه ..

***

وأجهــدتنى الحـيرة ، فانقطعت عــن مجلس أبى فى الأمسيات ، حيث كنت أقرأ عليه الكتب الأمهات فى التفسير والحديث ٠

وانقطعت كذلك عن رحلتى اليومية كل صباح الى دار «الشيخ دسوقى جوهرى» فى أقصى الطرف الشمالى الغربى للقــرية ، وقد كنت أســعى اليه لأقــرأ عليه أمهات كتب البلاغة ٠

ثم لم أجد مخرجا من حيرتى ، الا أن أفضى بهمومى الى الشــيخ الجليل ، وقد كان لى ، رحمه الله ، المعلم الصــديق والمستشار المؤتمن والراعى الأمين ٠٠

وهناك فى حديقة داره الخلوية على حافة الحقول المنبسطة الى مد البصر ، جلست أشكو اليه ما أجد من حيرة وتردد ، بين الصدود عن الجامعة والزهد فى درجتها العلمية بعد أن عبثت الحزبية بكل مابقى لها من حرمة ، وبين حــرصى على لقاء أستاذ هناك ، أعتقد أن تجربتى مع الجامعة لايحسمها الا أن ألقاه ٠٠

وبدأت أقص على شيخى بعض مايتنــاقل الطــلاب من حكايات ونوادر ، عن علم الأستاذ الخولى وقوة حجته وجبروت عقله وشخصيته ، فهز الشيخ الجليل رأسه وهو يقول بصوته الهادىء العميق :

ــ أعرفه يابنتى ، وانك لجديرة بالتلمذة عليه !

وقبل أن أهتدى الى صيغة متواضعة لاتنم عن غرورى ، أسأله بها عما عسى أستاذ محدث أن يقــدمه لمثــلى فى علوم العربية والاسلام ، مضى الشيخ الجليل يحدثنى عن أمله الكبير

فى أن أشارف الآفاق الرحبة لمنهج الأستاذ الخولى فى تجديد الفكر الدينى ، وتحرير العقل الاسلامى من أغلال الجمود والتقليد التى تخنق حيويته وتعطل انطلاقه مع الزمن !

سالت فى عناد :

ــ كذلك فعل الأئمة من السلف الصالح ، وآخرهم الامام الشيخ محمد عبده ، فهل من جديد يضيفه المحدثون ؟

وكان جوابه :

ــ أجل ياابنتى ! وكذلك تتتابع الأجيال على تلقى الأمانة الصعبة ، فيسير كل جيل من حيث انتهى سلفه ، دون أن يتجمد الفكر الاسلامى عند الذى وصل اليه جيل مضى !

ثم استطرد يقول متمهلا :

ــ ولكن فيم تعجلك بالحكم ؟ هلا انتظرت حتى تلقى الأستاذ الخولى ، وسوف يشوقنى أن أسمع حديثك عنه بعد أن تحضرى درسه ، فقد كان آخر عهدى به ، يوم انتقل من التدريس بمدرسة القضاء الشرعى ، الى المفوضية المصرية فى روما ، اماما لها !

وصكت الكلمة مسمعى ..

انتقل الى روما ؟

العاصمة الدينية لبلاد الفرنجة ، أعداء العرب والاسلام ؟

كيف خيل لى الوهم أن هذا الأستاذ ينتمى الى مثل بيئتى، وبينه وبينها تلك الهوة السحيقة ؟

كيف تصورت أنى عرفته قبل أن ألقاه ، وانى لمن قوم

يتقربون الى الله بلعن الفرنجة الذين عاش بينهم وخالطهم ؟

وعدت أسأل شيخي في انكار :

ــ ومن روما تزود ببضاعة الفرنجة ، ليجدد بها الفكر الاسلامي ؟

فتبسم ضاحكا من قولي وأجاب معقبا :

ــ والى بلاد الفرنجة سافر الامام الشيخ محمد عبده ، وفيها عاش . وفي بلاد الفرنجة تعلم ولدي محمود ــ الدكتور محمود فوزي عميد وزراء الخارجية ــ وفي روما نفسها ، كان يعمل قنصلا للمفوضية المصرية مع الأستاذ الخولي امامها ، بعيدا عن ديار الاسلام !

* * *

وكان رحمه الله يتحدث ، وفي صوته المهيب نبرة رثاء لي واشفاق علي ، وقد أدرك ببصيرته الذكية ما أعاني من صدمة المباغتة ، اذ ينطلق بي حديثه وراء الدائرة المغلقة التي كان يعلم أني أعيش فيها ، وأتصور أن العالم كله ينطوي داخل نطاقها !

وعدت الى دارنا ساهمة واجمة ، ألتمس خلوة بالمكتبة ريثما أجمع شتات نفسئ المبعثرة

وأمام خزانة كتبنا ، جلست أرنو الى الكنز الغالي الذي أوشك أن أراه مستباحا لموازين جديدة محدثة !

وأحاول أن أهرب من حيرتي بالمطالعة في كتب العلماء الذين ألفت صحبتهم ، فيختلط كلامهم في مسمعي بصوت «الشيخ دسوقي جوهري» وهو يحدثني عن حق هذا الجيل في أن يبدأ من حيث انتهى سلفه ، وحق العصر في أن يضيف جديده الى تراث العصور الخالية ..

ولأول مرة ، منذ صحبت أولئك العلماء الأئمة من السلف الصالح ، بدأت أتساءل فى أسى : هل يأتى يوم أتخلى فيه عنهم ، وقد كانوا منى ملء العقل والروح ؟

ولأول مرة كذلك ، بدأت أرتاب فيما اطمأننت اليه من أننى على وشك تصفية حسابى مع الجامعة ، وأشعر بحاجة الى أن أتمهل طويلا فى اختيار ما أتزود به من بضاعة قومى للجولة المقبلة ، خشية أن يكون منها ما لايثبت لنظرة ثاقبة من الأستاذ الخولى !

كمثل ايمانى بأن بلاد الفرنجة رجس ودنس ، دون تفكير فى أن امامنا الشيخ محمد عبده قد عاش فيها وخالط أهلها !

ومثل ايمانى بأن الأوائل لم يدعوا للأواخر شيئا ، دون أن أفكر فيما أضافه علماء الاسلام ، جيلا بعد جيل ، الى تراث سلف لهم صالح !

وتكاثفت الظلال على الأفق ، مختلطة بالأضواء التى سطعت بغتة من حديث معلمى الجليل «الشيخ دسوقى جوهرى» فكشفت لى عن مناطق مجهولة وراء حدود دنياى المقفلة بحواجز ظننتها آخر حدود العالم !

وتشابهت السبل على ، فى هذا المفترق من الطرق ، فلم أعد أدرى أى هذه الحواجز يبقى راسخا فى موضعه ، وأيها يريد أن ينقض !

فليستجب الله لدعاء أبى ..

وليأخذ بيدى على الطريق ..

موعدي .. معه !

مع الذكريات أمضى راجعة الى مستهل العام الجامعى سنة ١٩٣٦ ٠

وقد ودعت القـرية وعدت الى العاصـمة ، وملء نفسى شعور واثق بأنى أدنو من منطقة الضوء التى تنجاب فيها عن أفقى ظلال القلق والحيرة ، وتتضح معالم الطريق ٠٠

ومن عجب اننى ماكدت أصل الى العاصمة ، حتى زايلنى ماكنت أشعر به من تهيب للجولة القادمة ، أثرا لما سمعته من أستاذى «الشيخ دسوقى جوهرى» عن آفاق جديدة رحبة وراء جدود دنياى المغلقة !

واستعدت كل زهـو طموحى وعنـاد كبريائى ، تحت ضغط احساس غريزى بحاجتى اليهما دفاعا عن وجودى فى ذلك الخضم الصاخب ، حيث لا مجال لمثلى فى اقتحامه ، بغير الذخيرة التى أمدتنى على طول الطريق بطاقة الكفاح وعـدة النجاح ٠

ورحت أستجمع قواى للجولة التى توقعت أنها الحاسمة ، فازدهانى الغرور اذ أبدأ عامى الثانى فى الجامعة ، ومكتبات العاصمة تعرض كتابى الأول عن «الريف المصرى» ، والمجتمع الأدبى يتحدث عن فوزى بالجائزة الأولى للمباراة الرسـمية

لوزارة «على ماهر» فى موضوع «اصلاح الريف والنهوض بالفلاح» • ومجتمع القرية يتابع أنباء اختيارى عضوا فى «المؤتمر الزراعى الأول» الذى انعقد بالقاهرة عام ١٩٣٦، وكان زملائى فيه أقطاب الزراعيين : فؤاد أباظة مدير الجمعية الزراعية الملكية ، ومحمد ذو الفقار مدير المتحف الزراعى ، وعثمان أباظة مدير مصلحة الأملاك الأميرية ، وحسين فريد وكيل الجمعية الزراعية ، وابراهيم رشاد عميد التعاون •••

وازددت تشبثا ببضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى ، لعلمى أنها وحدها التى فرضت وجودى على مجتمع العاصمة ، وحققت لى ما لا تتطاول اليه أحلام زملاء لى من طلاب الجامعة ، فيهم من ينطق العربية بلكنة أعجمية ، وفيهم من يقع فى حيص بيص ، اذا ماسئل أن يكتب بضعة أسطر باللغة الفصحى !

وحاولت آلا أشغل نفسى بالذى سمعته من اتصال «الأستاذ الخولى» بالثقافة الحديثة ، فى رحلته الطويلة الى بلاد الفرنجة ، وانى لأعلم أنى ظهرت فى ميدان الصحافة والتأليف والمسابقة الرسمية والمؤتمر الكبير ، وحاضرت على منابر الجامعة وقاعة ايوارت التذكارية ، ودار الاتحاد النسائى ، دون أن أحتاج الى كلمة واحدة مما حصلته من علم محدث لم يلبث أن غاب فى منطقة معطلة من ذهنى ، بعد أن أديت امتحان الشهادة الثانوية ، ثم امتحان النقل من السنة الأولى بالجامعة •

وهل كنت أعتمد فيما حاضرت وكتبت ، على ماحفظت من كتب الطبيعة والكيمياء والجبر والهندسة ، أو ماقرأت فى

الانجليزية من آثار تشارلس ديكنز وشكسبير وشارلوت برونتي ، وفي الفرنسية من أعمال شاتوبريان وموليير وفيكتور هيجو وجورج صاند ، وفي اللاتينية من حروب يوليوس قيصر في بلاد الغال ؟

كلا ..

وانما كنت أحاضر وأخطب بلسان صقله تجويد القرآن الكريم ، وأكتب وأؤلف ، معتمدة الى أقصى المدى ، على اتصالى بالبيان العربى فى ذروة نقائه وعز أصالته ، وفقهى لأسرار من النحو واللغة تجعل القلم طوع يدى ..

* * *

وتوجهت الى الجامعة مشحونة بالكبرياء والتحدى والعناد، وقد آليت على نفسى ألا أدع هذه الجامعة تستدرجنى لتسلبنى كنزى القديم فى غفلة منى !

وشط بى الوهم وجمح ، فخلت أن الجامعة تضيق بمثلى فلن تهدأ حتى تطوينى فى ظلها ، وتحاول بكل ما وسعها من جهد وحيلة ، أن تذيبنى فى بوتقتها لكى أنسلخ من قديمى الأصيل ، وأعتز بانتمائى اليها !!

ولست أدرى لماذا تذكرت فى موقفى ذاك من الجامعة ، تجربتى الأولى فى العاصمة مع السيدة «الحاجة لبيبة أحمد صاحبة مجلة النهضة النسائية» ؟

ربما جاء الاختلاط ، من حيث أسرتنى السيدة الوقور بلطفها وتشجيعها ، وبما ائتمنتنى على اسمها ومجلتها ودارها ، فلم أستطع الفكاك من الأسر الا بمشقة بالغة ، بعد أن أجهدتنى معاناة التقمص لشخصية السيدة الحاجة ، والتفكير بعقليتها ، والتعبير عن وجدانها ، وبينى وبينها من فروق

السن والتجربة والطبقة والبيئة ، ماجعل هذه المعاناة نوعا من العذاب ٠

لقد طوتنى فى ظلها وهى تبارك مواهبى ، فشاخ قلمى الغض واكتهلت عقليتى الصبية ، لطول ماتقمصت فكريا شخصية سيدة فى سن جدتى ٠٠

ولـولا أن تداركتنى رحمـة من ربى ، لمـا استطعت التخلص من أغلال الأسر بمجرد أن وضعت احدى قدمى فى الجامعة ، والأخرى فى دار الأهرام ٠٠

واستطعت بمشقة بالغة أن أسترد ذاتى ، بعد أن وعيت الدرس الأول الذى تعلمته فى المدينة ٠٠

ومحال أن أسـمح لبيئة ما فى العـاصمة ، ولو كانت الجامعة ، أن تطوينى فى ظلها وتذيب عقليتى فى بوتقتها ، لتسلبنى ذاتى مرة أخرى ٠٠

* * *

وتعجلت الجولة الباقية لى فى الجامعة ، لكن العام الدراسى بدأ فى جو عاصف بالتوتر والقلق ، ودوامة الأحداث العامة قد شدت الجامعـة الى صميم المعترك السـياسى ، وكنت أقف بمعزل عنه ، بعد أن عبثت الحزبية بقضية الوطن ، فصارت بها الى صراع محموم على كراسى الحكم المتحركة بخيوط من قصر الدوبارة ٠

حتى لفتنا الدوامة الصاخبة ، بعد أن سقط شـهيدان من زملائنا الطلاب على مرأى منا ومسمع ، فاستقبلنا العام الجامعى وما نستقر على حال من الغضب والسـخط ، وأعين السلطة مسلطة علينا تخشى تجمعنا بعد عطلة الصيف ، فى تلك الساحة التى اندلعت منها فى الخريف الماضى شرارة ثورية حاولت السلطة اطفـاءها بمياه النيل تحت كوبرى عبـاس

المشموم . فزادها الماء المبارك توهجا وضراما .

ومضت أيام وأسابيع ، ونحن نذهب الى كلية الآداب فلا نكاد نأخذ مقاعدنا فى قاعة الدرس ، حتى يستفزنا طيف شهيدنا الزميل «عبد الحكم الجراحى» فننتفض فى أسى وحيرة، وحتى يأخذنا الضجيج المثار عما رزئت به الأمة من معاهدة صداقة وسلام مع الانجليز ، فيتفرق جمعنا فى مجموعات مبعثرة لاتجد سبيلا الى طمأنينة واستقرار ..

فى احدى هذه المجموعات ، لمحت الأستاذ الخولى يتحدث الى عدد من تلاميذه تحلقوا حوله يصغون فى انفعال ظاهر . فدنوت منه لأسمع مايقول ، وكانت دهشتى بالغة حين ميزت فى صوته العميق نبرة مألوفة ، **جعلتنى أفكر متسائلة :**

ـ أين ومتى ياترى سمعت هذا الصوت ؟

نفس السؤال الذى طالما رددته فى خاطرى كلما لمحت هذا الأستاذ من بعد فلم أشعر قط أنه غريب عنى . **وانثنيت أفكر :**

ـ أين ومتى ياترى لقيته من قبل ؟

وشدتنى كلماته النافذة المنطلقة ، قريبا من منطقة الضوء ، وقد خيل الى أنه يعنينى بكل كلمة منها ، عن شواغل تافهة تستهلك طاقة شباب الأمة وتلهيهم عن محنتها ، وعن آمال لهم هزيلة تخدر ضمائرهم وتحصرهم فى نطاق فرديتهم، وعن أوهام ساذجة حمقاء تنسج لهم آمجادا كبيت العنكبوت ، وعن أضواء براقة خادعة تعشى أبصارهم وبصائرهم ، فيتهافتون عليها تهافت الفراش ، اقتناصا لفرصة عاجلة أو شهرة خاطفة !

وكان الطـلاب الذين تحلقوا حـوله ، يحاورونه فيما يقول ، لكنى لا أذكر أنى وعيت كلمة مما قالوا ، بل كان همى كله أن أصغى الى صوته القوى المسيطر ، وهو ينفذ الى أعماق وجدانى وضميرى فيكشف عن بصيرتى غطاء الغفلة والوهم والغرور ..

وحين هم الأسـتاذ بالانصراف ، سأله سائل من طـلاب فرقتى عن موعد درسه الأول لنا ، فكان جوابه :

ـ ليكن الموعد فى مثل يومنا هذا من الاسبوع المقبل

ثم استطرد موضحا :

ـ أحسبه السادس من نوفمبر !

وأذهلتنى المفاجأة ، فما تمالكت أن رددت بصوت خلته مسموعا :

ـ السادس من نوفمبر ؟ واعجبا ! انه يوم مولدى ..

لكن الجمع كان قد انفض ، فانصرفت لحالى وأنا لا أكف عن التفكير فى ذلك الموعد العجيب الذى اختاره القدر للقائنا، دون بقية أيام السنة وعددها ثلاثمائة وستة وستون يوما !

وأعيانى أن أريح نفسى بافتراض أن الأمر لايعدو أن يكون محض مصادفة ، فما كان منطق بيئتى المتصوفة ليسمح لى بهذا الافتراض ، وهو منطق يرفض القول بالمصادفة رفضا حاسما ، ويرد الأمر فيها الى مشيئة عليا تحكم مايبدو للخلق، من قبيل المصادفات العشواء !

وعلى مشارف منطقة الضوء ، تمهلت أحـدق فى آثار

خطاى على الدرب الطويل الوعر ، فكأنى تبينت اذ ذاك سر اصرارى على لقاء الأستاذ الخولى قبل أن أصفى حسابى مع الجامعة ..

بل كأنى أدركت كذلك ، أننى ماقطعت ذلك الشـوط الطويل على دربى ، الا لكى ألقاه فى يوم مولدى ..

اللقـاء...

كلما اقتربت ، فيما أسترجع من آثار خطاى على الطريق اليه ، من ذكرى لقائنا الأول ، تمهلت أجتر الذكرى ، لعلى أعود بها من حيث بدأت فأعيش حياتى معه مرة آخرى ، بعد أن طواها الردى ..

ومن بعيد ،

تلوح لى الرؤيا الباهرة التى تجلت لى عندما لقيته ، فأتشبث بها فى محاولة يائسة للافلات من هول اليقظة والهروب من عالمى المنهار ..

من بعيد ،

أرنو الى مشارف الأفق المسحور الذى لاح لى بعد أن عبرت منطقة الضباب ، فأجاهد لأطوى فى رحابه النيرة حاضرى البائس وواقعى الفاجع ، وألم شتات ذاتى المبعثرة وأشلاءها الممزقة ، عساى أن أنجو بها من لوثة الأسى ومتاهة الضياع ، لتمضى عبر السنين الخوالى الى حيث تراءى لها ذلك الأفق عبقرى السنا والجلال ، فتسامت نحوه لاتحيد عنه ، فكلما عرجت اليه خطوة امتد أمامها رحب المدى عالى الذرى ، وهى تزداد على مشاق العروج وتكاليف المجاهدة ، جلاء

بصيرة ونفاذ رؤية ، وتتزود فى كل خطوة بمدد متجدد من فيض اليقين ونور الايمان ..

من بعيد ،

أقف عند نهاية المطاف أستجدى الزمن رجعة الى الأمس السعيد الذى ولى وراح ،

وأتسول غفوة حالمة تحملنى الى حيث أفضى بى المسعى الى دربه ، فى يوم ميلاد لى جديد !

هناك ..

حيث أخذت مكانى فى قاعة الدرس بالجامعة ، متحفزة للجولة الباقية لى على الطريق ، ومستجمعة كل رصيدى المتضخم من زهو الطموح وارادة التفوق ، ومتأهبة لعرض بضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى ، فى تحد واثق من النصر ..

ودخل «الأستاذ الخولى» بسمته المهيب المتفرد ، فألقى علينا التحية واقترح ، لكى نتعارف ، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن ، ولكل طالب أن يختار مبحثا منها ، يعده ويعرضه للمناقشة فى الوقت الذى يحدده .

وبادرت فأعلنت اختيارى للمبحث الأول ، فى « نزول القرآن » .

وعندئذ سرت فى القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء ، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته ، لكنه لم يلق اليها بالا ، واستطرد يعرض بقية

المباحث ، وأنا أتشاغل عن غيظى المكظوم ، بالتفرج على عدد من الزملاء ، فى صراعهم المكشوف على المبـاحث الأخيرة ، ارجاء للموقف الصعب ٠

وعاد الأستاذ يسـأل كل طالب منـا ، عن الوقت الذى يحتاج اليه فى اعداد بحثه ، فأجبت فى عناد وشموخ :

ـ يكفينى يوم أو بعض يوم !

قال فى نبرة اشفاق وتحذير :

ـ كذا !؟ فكرى مليا ، فربما بدا لك أنك فى حاجة الى مزيد من الوقت ٠

وأبيت أن أتراجع !

ولماذا أتراجع ، ومبلغ علمى أن المادة مبذولة جاهزة ، ومصادرها الأصيلة فى متناول يدى ، فلن يحتاج الأمر معى الى أكثر من بضع ساعات للمراجعة ، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة !

ولم يفتنى أن الأستاذ يرانى تورطت فى هذا التعجل ، فكأنى خشيت أن يأخذ عنى فكرة خاطئة ، **فقلت أسأله ، مدلة بما أملك من ذخائر علمه :**

ـ هل يكفى أن أراجع فى موضوعى ، بكتاب «البرهان» للبدر الزركشى ، وكتابى «الاتقـان ، واللباب» للجـلال السيوطى ، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية ، وطبقات ابن سعد ، وتفسير ابن جرير الطبرى ؟

أجاب :

ـ كتاب واحد منها يكفى الآن ، لو أنك عرفت حقا كيف تقرئين !

وكان هذا ، آخر ماتوقعت أن أسمع !

ألمثلى يقــال ذلك ، وما من كتاب من أصــول العــربية والاسلام يعيبنى أن أقرأه ؟

وكبحت غضبى وأنا ألتمس للاســتاذ العــذر ، فلعله يتصور أننى كغيرى من الطلاب ، وفيهم حقا من لايعرف كيف يقرأ !

ــ ماذكرت هــذه الكتب الا لأنى قراتهــا واستوعبت مافيها ، وانما كان ســؤالى عن مصــادر أجنبية ، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها الى مراجعى !

فما زاد على أن قال :

ــ لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع ، لما تورطت فى مثل هذا السؤال المنكر !

وتحيرت لا أملك ســؤالا ولا ردا ، فما كنت حتى تلك اللحظة ، قد فكرت فى التمييز بين المصدر والمرجع ..

وتابعت الاصغاء الى الأستاذ ، وهو يلقى علينا مبادىء منهجه ، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول !

وبجهد مرهق ، تشاغلت عن عالمى النفسى المائج بشتى الخواطر ، لأعى ماأسمع ، ولاشىء يزعجنى غير دقات ساعة الجامعة ، معلنة عن سير الزمن ..

وكنت أتمنى لو توقف الزمن ، ليظل الأستاذ يتكلم ، وأنا أصغى وأتعلم !

من ذلك اللقــاء الأول ، ارتبطت به نفســيا وعقليا ،

وكأنى قطعت العمر كله أبحث عنه فى متاهة الدنيا وخضم المجهول ٠٠ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالىبظروف وعوائق، قد تحول دون قربى منه ، فما كان يعنينى قط ، سوى أنى لقيته ، وما عدا ذلك ، ليس بذى بال !

وقد انصرفت من درسه الأول ، فى اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦ ، وأنا أحس أنى ولدت من جديد ٠

***

وحين وقفت بعد أسبوع أؤدى أمامه امتحانى الأول ، لم أصمد سوى دقائق معدودات ، أقررت بعدها أن حصيلتى من كنز الثقافة الاسلامية ، الذى حسبت أنى ملكته ، لاتعدو القشور والأصداف ! وان بينى وبين ذخائره المكنونة حجبا وأرصادا تحول دون النفاذ الى الجوهر واللباب ٠

وفهمت لماذا ارتاب الأستاذ فى معرفتى للقــراءة ، فما كانت قراءتى لذخائر مكتبتنا ، سوى مطالعة سريعة مرتجلة ، تلتقط الدلالة العابرة والملحظ القريب المبذول ، ويعوزها ضبط المنهج وأناة التمثل ، فيخطئها لمح سر الكلمة وروح النص ، ويفوتها الاصغاء الى ايحاء النبرة ونبض الحرف !

وكان على ، أن أعود فأبدأ القراءة فى كتب قومى ، من حيث ظننت أنى بلغت منها أقصى ماتعطى ٠

وربما انقضت أيام وليال ، وأنا عاكفة على قراءة فقرة من كتاب ، كنت بحيث أتم قراءته كاملا فى أمسية واحدة !

بل ربما انقضت شهور وأنا مستغرقة فى التماس سر كلمة من القرآن الكريم ، وكنت أتلو السور الطوال عن ظهر قلب ، لا أتوقف ولا أتعثر !

والمعارف المحدثة التى انزوت فى منطقة معطلة من ذهنى بمجرد أن أديت الامتحان فيها ، مالبثت أن انتقلت الى مجال الوعى والادراك ، بتأثير شعورى بالحاجة الى روافد منها تخصب وجودى الفكرى ، والى منافذ مفتوحة تنطلق منها عقليتى الى ماوراء الجدران العازلة الصماء التى حسبتها نهاية الحدود لعالم المعرفة .

وانجلى ماحسبته سرابا ، فاذا الجامعة تعطينى من جديدها مالم يخطر لى قط على بال ..

واذا القديم الذى جئتها به ، يجلوه منهج الأستاذ الخولى فيمنحه روح الحياة ونبض العصر !

ومضى وقت طويل ، قبل أن أجرؤ على الوقوف مرة ثانية ، لأقرأ على الأستاذ الخولى فى قاعة الدرس ، بتهيب وخشوع ، فصلا من «مقدمة ابن الصلاح» فى علوم الحديث ، عن ضوابط المنهج النقلى للرواية .

بعد أن حشدت له كل طاقتى من تمثل منهج الأستاذ ، وكل رصيدى من تراث السلف ، وقطعت اليه رحلة ذهنية طويلة شاقة ، مع مسار الانسانية فى طريق المعرفة ، من تصورات العقلية الأسطورية فى مدرسة السحر ، الى حكمة الفلاسفة الأقدمين ، ومن جدل السوفسطائية ومنطق أرسطو ومقال ديكارت والمنهج التجريبى الاستقرائى ، الى مباحث الأصوليين والكلاميين ، وضوابط علماء الحديث واللغة ، ومناهج الفلاسفة المسلمين !

وانتهت المرحلة الجامعيــة الأولى ، ولم يبق لى من زهو الطموح الا ادراكى لحاجتى الى آن آتعلم ، وتطلعى الى أن أظل ما عشت تلميذة لهذا الأستاذ الذى علمنى كيف أقرأ !

ولم يبق لى ما أعتد به فى مجال التنــافس العلمى مع زملائى الطلاب ، الا أن أباهى بما أعلم من قصورى عن بلوغ مدى الأستاذ الخولى ، حين ظن ظانون منهم أن التلمذة عليه بضع سنوات ، قد تعطيهم مفــاتيح علمه وتبيح لهم أسرار درايته ..

وما كان أشق الطريق بعد ذلك !

لقد ظننت حينا أننى ماأكاد أصل الى مرحلة الدراسة العليا حتى يهون الأمر على ، اذ يصير لى حــق اختيار المجال الذى أتخصص فيه وأفرغ له .

غير أنى مالبثت أن أدركت أن تلمذتى للأستاذ الخولى ، جعلت مافات من مصاعب الطريق ، أهون من أن تقاس بما أستقبله منها .

كنت أشــعر بالأســتاذ الخــولى معى ، فى كل ماأقــرأ وما أكتب ، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة

منهجه وجبروت منطقة ، فأطيل الوقوف عند كل كلمة ، حتى ألمح سرها ·

ولم يعد يعنينى أن أتعجل اتمـام بحـوثى للدرجات الجامعية العالية ، بل الذى كان كثيرا مايحدث ، أن أقطع فيها مرحلة أحسبها خطوة فى الطريق ، ثم أعـرضها على منهج أستاذى فأتخلى عنها بعد الذى أنفقته فيها من جهد ، وأعود فأبدأ من جديد وكأن ليس للزمن والجهد أى حساب فى سبيل ضبط التفكير ، أو الكشف عن كلمة واحدة فحسب ، غاب عنى سرها ·

وكـدت ، لكثرة ماتعثرت ، أن أيأس من طـاقتى على الوصول بالبحث الى مستواه المرضى ، لولا أن أنكر أستاذى على ، أن يفوتنى وعى المغزى الحقيقى لهذا الشعور بالقصور والتعثر · وعجبت حين سمعته يؤكد لى ، أننى سأظل مرجوة ، طالما بقى لى شعورى بالقصور وادراكى لمشـاق الطـريق ! وأحسبه ذكر لى فى تلك المناسبة ، ماوعى «الامام مالك بن أنس» **من وصية شيخه هرمز :**

«ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول : لاأدرى ، فان العالم اذا أخطأ لاأدرى ، أصيبت مقاتله !»

وحين أفضيت اليه بأننى فى ريب من امكان الوصول ببحثى الى غايته ، **كان جـوابه الذى ظل ملء مسـمعى على طول المدى :**

ـ ومن قال ان الطالب يسـتطيع أن يصـل بالبحث الى غايتـه ؟ نحن نعيش العمر كله طـلاب علـم ، كادحين الى

مانستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغـايات .
وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه ، وجهد طالب العلم لايقاس بمدى ماقطع من أشواط ، وانما يقاس بسلامة اتجاهه ، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الطـويل الممتد الى غير نهاية ولا مدى ..

وهكذا كنت أجد لديه لكل معضلة حـلا ولكل سـؤال جوابا ، فأشعر بالرضى عن نفسى اذ لم يخنها صدق الالهام وسلامة الفطرة ، فاتجهت بى الى من أحس كلما لقيته أننى أولد من جديد ، وأحس كلما جلست اليه وحضرت درسه ، أن عالمى يرحب حتى لتضيق الدنيا عن أن تتسع له !

***

وكان من الغريب حقا ، أننى حين فتحت قلبى وعقلى للجامعة ، عن يقين واثق بأن لديها ماتقدمه الى من جـوهر العلم ومنهج المعرفة ، واجهتنى أزمة من عجز البيئة الجامعية عن فهم معنى التلمـذة العلمية ، بحيث اضـطرتنى الى أن أخوض معها معركة عنيفة ،لكى أفرض عليها تلمذتى للأستاذ الخولى ، دون أن تكون مستعدة لقبولها .

كانت البيئة الجامعية تنظر الى هذه القضية ، من حيث هى علاقة شخصية أو ظاهرة عارضة غير مألوفة ، على حين كنت أنظر اليها من حيث هى قضـية مبـادىء خلقية وقيم علمية ، وكرامة عقلية ، فكان صراعا طويلا مجهدا ، احتسبت كل أذى فيـه امتحـانا لأهليتى لما تعلقت به وطمحت اليه ، وجهادا فى سبيل ما آمنت أنه حق وواجب ..

ولست الآن بحيث أقص حـديث هـذه المعركة ، وانى

لأدرى أن عددا من زملائى خاضوها كذلك بصورة أو بأخرى، نضالا عن تلمذتهم للاستاذ الخولى ، فلم تعد القضية خاصة بى ، فيما أروى من ذكريات حيــاتى ، وانما هى جــزء من تاريخ جامعتنا ، يستكمله الزمن فى غد قريب أو بعيد ، دون أن يفلت منه شيئا ذا بال ..

معا ..
على دربنا الواحد

وآن لى بعد كل تلك الرحلة الشاقة ، ان أعرف جواب ما طالما سألت عنه :

ــ أين ومتى ياترى لقيته ، وسمعت صوته من قبل ؟

فمنذ قابلته ، تجلى لى السر المحجب الذى حيرنى أمدا طويلا ، وكانت مجاهدتى الصعبة سعيا دائبا لكى اصل الى مرتبة الكشف التى يفنى «أهل الحقيقة» أعمارهم فى سبيل الوصول اليها ..

فلقد آمنت من اللحظة الأولى للقائنا ، أنه اللقاء الذى تقرر فى ضمير الغيب منـــذ خلقنا الله من نفس واحــدة ، وخلق منها زوجها .

وان عدتنا الدنيـــا اثنين فى الحساب الرقمى والواقع العددى ..

اثنين ، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته ..

وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الدنيا والناس .

ولكنهما فى جوهر حقيقتهما واحد لايتعدد ..

لا كما تخيلت الأساطير عن النفس والقرينة .

ولا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة فى جسدين ..

ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفنان فى ذات الحبيب .

ولا كما تأمل الفلاسفة فى وحدة الوجود .

ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم ..

وانما هو سر وراء ذلك كله ..

تجلت فيه آية الله الذى خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها !

***

وكنا أحيانا نفترق

يذهب كل منا الى عمله ، أو يسافر فى بعض شانه

وقد يمضى أحدنا الى أقصى المشرق ، والآخر الى أقصى المغرب .

لأن الدنيا لاتعرف الا أننا اثنان !

والحياة تفرض علينا أن نعانيها بهذه الثنائية العددية

ورغم هذا ، كنا النفس الواحدة ..

وذلك ما أعيا الدنيا ويعييها أن تفهمه أو تتصوره وتتمثله

الا أن تحسبه من رؤى الشعراء الحالمين أو مواجد الصوفية العاشقين

ويعيى منطقها أن يفسره

الا أن يقول فيه انه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح

وراء عـالم الواقع ومقـاييس المادة ، ومنطق الحس وأبعاد المنظور

وكنا أحيانا نتخاصم !

وربمـا مـرت علينا فترات مغاضبة يحسـبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب ودلال العاشقين

ويلمح فيها أرهفهم حسا ، وهـج الضرام المتوهج فى أعماقنا يتلمس متنفسا !

دون أن يتصور أحدهم ، ان المخاصمة أو المغاضـبة ، ليست الا صراعا حتميا بين جوهرنا الواحد ، وبين الثنائية المزدوجةالتى يفرضها علينا واقعالحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا !

ومضى العمر كله وماكففت عن التساؤل :

ـ آكان يمكن أن أضل طريقى اليه ، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه ؟

وحتى آخر العمر ، لم يتخل عنى ايمانى بأنى مامرت على دربى خطوة الا لكى ألقاه ٠٠ وما كان يمكن أن أحيد عن الطريق اليه ، وقد عرفته فى عالم المثل ومجالى الرؤى وفلك الأرواح

من قبل أن أبدأ رحلة الحياة ٠٠

ثم مضى ..
وبقيت !

هل من سبيل الى أن أستبقى تلك الرؤيا الباهرة لمسماى اليه ولقائى به ، لتؤنس وحشة الفراق الى أن يحين الأجل فألحق به ويلتئم الشمل مرة آخرى فى عالم الروح ..

أسفا !

كل ما مضى انتقل الى منطقة الأحلام ، فلا سبيل الى استرجاعه الا فى غفوة مختلسة لا تلبث أن تتبدد بيقظة مروعة ، تسلمنى الى قبضة الواقع ، حيث المشهد الفاجع من قصتنا التى كانت أسطورة الزمان ..

لقد مضى .. وبقيت .

ورأيته بكل جلاله وشموخه وكبريائه وفتوته ، يرحل عن الدنيا حين لم يعد له فيها على آرضنا مكان ..

وشهدته بعينى مسجى على فراشه ، ليس بين حياته الدافئة الخصبة الفتية السخية ، وبين هذا الموت الهامد ، الا نبضة من قلبه الكبير لم تستغرق جزءا من ثانية وخفقة من نفس واحد ، لا يكفى لاطفاء عود ثقاب ..

وعلى عينى ، اقتحم ناس غرباء مخدعه ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة .

وعلى عينى ، حملوه من دارنا الى غير عودة ، ومضوا به الى قريته « شوشاى » فى ريف المنوفية .

فدفنوه فى ترابها الذى جاء منه ، واليه كان المآب ..

* * *

وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالا ونضرة من بعده ، وأندر شجاعة وحكمة .

فكيف عساها تبدو لى

وقد كان هو نبضها الحى وسرها الاكبر

وكان هو الذى يعطيها قيمة ومعنى

وعلى درب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة

سارت خطاه تشع الدفء والنور ، وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال ..

***

وما تصورت قط أنى أعيش بعده ..

بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معا الى الدار الآخرة .

وأن ليس على الله بمستبعد ، ونحن من عباده الذين اذا أرادوا أراد ..

أن تتجلى فينا وبنا آيته الكبرى ، فنمضى معا

كما تجلت فينا ولنا فى حياتنا الأولى

فكنا الواحد الذى لا يتعدد ، والفرد الذى لا يتجزأ ..

***

كيف مضى وبقيت ؟

أهو ابتلاء لايحانى ببشرية الانسان ، اذ أشهد الموت يغتال من كان يعطى الحياة ، ويفيض عليها جمالا من شجاعته وحكمته ، وذكائه وفروسيته ؟

اللهم انى ما جحدت قط بشريته ، وكل بشر يموت ، لكنى ما توقعت أن أعيش بعده

فهل هو الموت ، لا يرى فينا الا اثنين ، لكل منهمـا أجله المقـدر بالثوانى ، وعمره المحسوب بالأنفاس ؟

تلك اذن تجربة أخرى نكابدها ، فيكون منا الحى الميت والميت الحى ، الى أن ألحق به فيلتئم كياننا طيفا واحدا فى عالم الأرواح .

أم لعلها الحياة أمهلتنى ريثما أروى قصتنا على مسمع الزمان ، تفسيرا لآية الله العظمى فينا ، خلقنـا « من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » ؟

أم لعله القدر أراد لى أن تكتمل معاناتى لتجربة الحياة ، فأبلو حزنها الأكبـر كمـا بلوت نعمتها العظمى وفرحتهـا الكبرى ؟

ما زلت حائرة لا أدرى ..

وعلى الجسر ، ما بين الحياة والموت

فى متاهة الحيرة والضياع

لا أكف عن رصد حركاتى واحصاء أنفاسى ، مستغرقة فى تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا !

مرددة مع كل نفس :

كيف مضى ... وبقيت !

***

أسفا ! !

كل الذى كان من حياتنا معا ، انتقل الى منطقة الأحلام والذكريات

والذى بقى ، فى نطاق الواقع ، هو هذا المشهد الفاجع ، بكل عمقه الغائر وأبعاده المترامية !

دنيانا بعده ..

رؤيا ..

طيف من أحببته طـاف بنـا
فتنبهنـا على وقع خطـاه
خلته قد آب من رحلته
مرهف الشوق وقد طال سراه
بعد يأس من رجاء الملتقى
بلغ البين بنـا أقسى مداه
فطوانا الليل فى كهف الأسى
نحتسى الوحشة من كأس دجاه
شـدونا نـوح غـراب ناعق
والندامى البوم من قاع فلاه
جثمت فى الكهف لا تبرحه
واطمأنت بعد أن سدت كواه
وانكفأنا فى غيـابات الدجى
نغـزل الظلمة خيطا لا نراه
ونسجنا منه أكفـانا لنـا

حين لم يبق لنا خيط سواه
وانزوينا فى مهـاوى كهفنا
عافنا الموت ، وعافتنا الحياه

* * *

لم نكن نمنـا ، ولكن غفـوة
من كلال نال منـا منتهاه
هجع السـمار فيهـا برهـة
وغفا النـاعق يجتر صداه

* * *

فجـأة نبهنـا من غفـونا
رجع ايقاع أليف من خطاه
وتهـادت نحونا أنفـاسه
تحمل البشرى لنا ، عطر شذاه
ردت الروح الى أشـلائنا
وسرت فى قلبنا نبض حيـاه
فاسـتبقنا البـاب لاستقباله
وعلى الأفق شـعاع من سـناه
لمحـة من ناظـريه بـدلت
ما كسانا الليل من ثوب عماه
لمسـة سـاحرة من كفـه
عاد منها الكهف محراب صلاة

* * *

قلت : أشكو منتباريح النوى؟

قال : لا ، ليس ذا وقت الشكاة
حسـبنا أنا التقينـا فاغفرى
لزمان البين ما اغتالت يداه
قلت : أخشى ما طوى من غدره
ليت ما ذقناه منـه قد كفاه
قال : خـلى هـم أمس وغـد
أمس قد ولى ولم تأت الغـداه
قلت : ماأدرى ، أحلم ما أرى
أم بعثنا ...
وانتهى الصوت وتاه
وصـحونا ، فاذا تلك رؤى
بعثرتها الريح فى تيه الفلاه
واذا نحن كمـا كنا هنـا
فى قرار الكهف لم تفتح كواه
نلعـق المر ونقتات الجـوى
عافنـا الموت وعافتنا الحياه

شوشاى
١٩٦٦/٩/٩

بعد عام

ومضى عام وما زلت هنا
أنقل الخطو ،
على الجسر اليك ...
مرت الأيام تغذونى الجوى
كيف لم أهلك أسى
حزنا عليك ؟
كلما قلت دنا ميعادنا
خاننى الظن ..
ولم أرحل اليك
مزقت أيدى المنايا شملنا
وأرانى دائما ..
بين يديك !

* * *

هل مضى عام ؟
أما كنت هنا
منــذ يوم فات كالدهر الطويل ؟

لم نزل فى حيرة من أمرنا
هل مضى عام على يوم الرحيل ؟
وصدى نعيك فى اسماعنا
لم يزل يدوى ، فيغشأنا الذهول
عامنا ،
قد كان دهرا من عذاب
ولئن خلناه كالحلم الرهيب
دربنا ،
قد صار كالقفر اليباب
غير طيف منك ، عنه لا يغيب
دارنا ،
لم يبق فيها من ثقاب
غير رؤيا لمحة ، فيها تئوب !

* * *

طيفك الماثل يحدو خطوتى
نحو مثوى لك ،
دان ، وبعيد ...
هاتفا أن أحتمى فى وحشتى
بيقين الملتقى ،
خلف السدود
لحظة تأتى فتنهى محنتى
بالتئام الشمل ،
فى دار الخلود ..

لحظة تنسخ ماكابدته
من عذاب البين ،
من رفض الحياه
من وجود عافني أو عفته
عاش فيه اليأس
واغتال مناه !

* * *

لم تغب رؤياك عني في الدجى
وحديثي كله ،
عنك .. ولك !
وأناجيك فيرتد الصدى
من بعيد ،
سائلا عني وعنك :
كيف أبقى بعد ايغال النوى
وحياتي سرها ،
فيك ... وبك ؟

* * *

هل مضى العام ومازلت هنا
أنقل الخطو ،
على الجسر اليك ؟
أبأنفاسك أحيا أم ترى
مات بعضي ،
وبكى بعضي عليك ؟

مصر الجديدة
١٩٦٧/٣/٩

لا تَخَلْ أنَّا على بُعد المزارْ
قد سلونا أو نسينا عهدنا
أو غفونا بين ليل ونهـارْ
ننشد الصبر وناسو جرحنا
أو تعبنا من سهاد وعذاب
فالتمسنا مهربا من بؤسنا
أو مللنا من ضياع وسراب
فابتغينا راحة فى يـاسنـا

* * *

لا تخَلْ أنَّا على مرِّ الزمَـنْ
قد عرانا الضيق من أطلالنا
أو عيينا ببقايا من دِمنْ
لا تَنِي تبكى على ماض لنـا
سائلات فى وجوم وشجنْ ،
أين مغنانا الذى كان هنا ؟

ما دَرَتْ تلك البقايا أنها
رجَّعتْ فينا صدى أشجاننا
ما دَرَتْ أنَّا حُطامٌ بينها
لا ترى فيه سوى أشلائنا

* * *

قد يرانا يومُنا كالناس انمشى

ما علينا من خُطانا ؛

أو يرانا ليلنا كالناس نأوى

وأسانا قد طوانا

ربما نلعق من جوع طعاما

والشَّجى سَمٌّ لهانا

ربما نجرع في القيظ شرابا

والجوَى يكوى حشانا

ربما نأخذ فى لغو حديثٍ

ما نراه قد عنانا ،

ربما نلبس للناس قناعا

ساترا عنهم أسانا

ربما جُنَّتْ بنا أشواقنا

فكتمنا ما بنا ،

عمَّن سوانا ،

ربما استنفد دمعاً شجونا

فانكفأنا نصطلى ،

جمْراً كوانا

غير أنَّا يا حبيبى ، ما نسينا
وإلى لُقياك تحدونا خُطانا
وروُانا

كلمات للذكرى

١

ما علينا . . . .

اشرب الكأس ولا تُبْقِ ثماله

ما علينا ،

يستوى حلو ومرّْ

* * *

وافترضْ أنّا رفضنا شُرْبَها

هل يبالى رفضَنا ، دهر يمرّْ ؟

هوّن المرَّ علينا أننا

قد جرعناه طويلا ،

قطرة فى إثر قَطره ،

ومضى الدهر علينا لاهيا ،

غافلا ، لم يلق نظره

فلنُسغْ من كأسنا هذى الثماله

يستوى حلو ومر . . . .

***

طال مسرانا ولم تبق ذُباله ،

ما علينا ،

يستوى ليل وفجر

* * *

عبثا ترجو شعاعا من ضياء!

ينسخ الظلمة من ليل بهيمْ

غاب عنا نجمنا ذات مساء!

وسوينا بعده نرعى السرابْ

وتعللنا برؤيا فى المنامْ

ومضى عامٌ ، وعامٌ إثر عامْ

ما مللنا ،

إنما مل السراب

فتوارى يائسا منا ، وذاب

فى سراديب غمام وضباب

وخبا ما كان من وهم عقيمْ

***

واقترض أنا شكونا أو دعونا .

هل يبالى التيه شكوى أو دعاء
أو يرى فينا ، سوى بعض هشيمْ ؟
ضل مسرانا ولا ضوء ذباله
ما علينا ،
يستوى ليل وفَجرُ

٢

لن ترىِ فى اليم مرسى
غيرِ وهم وضلاله
ما علينا ،
يستوى برٌ وبحر

***

أى مرسى لغريب
زاده يأس وقهر ؟
كلما نادى أجيب
غيب الملاحَ قبر
ليس يرجَى أن يئوب ،
فإلى أين المفرُّ ؟

تاه فى اليم الطريقْ
أينما وليت واجهت الضياعْ

صارع الأمواج ،

ما جدوى الصراعْ ؟

مزّقَ النوءُ الشراعْ

وهوى المجداف فى قاع سحيقْ

***

وافترضْ أنا التمسنا ؛

من دمار ، أى مخبأً ،

فيم مسرانا بليل

غاب فيه كل مرفا

واستوى بحرٌ وبرٌ

واستوى مدٌّ وجزْرٌ

٣

كل دنياك ضياع واغترابْ

واكتئاب ، وملاله

ما علينا

يستوى رفض وصبر

***

عاتب الأقدارُ ،

ما جدوى العتابْ ،

وأمانينا طامٍ ، ورُفات وتراب ؟
يستوى نفع وضرُّ

***

وافترضْ أنا هربنا ،
من جنون وخبالْ
هل لدى العقل جواب ،
عن سؤال ، وسؤال ، وسؤال ؟
هل درى أين المفرُّ ؟
أو رأى فى اليم مرسى ،
غير وهم وضلاله ؟

فاسر فى التيه فلا ضوء ذباله
يستوى ليل وفجر
واشرب الكأس ولا تبق ثمالة
يستوى حلو ومرُّ . . . .

عود على بدء

كلما قلنا : برئنا ،

من جراح القهر باليأس العقيم

واسترحنا ،

واستوى خيرٌ وشرٌ

واستوى رفض وصبر

حوَّمت مصر على أشباحنا

تنبش الأنقاض عن جرح الهشيم

أحيت الهامدَ من أشجاننا

واستعَّرتْ ، موغلات فى الصميم ،

وكأننا ما يئسنا ،

وانطوينا ، وانتهينا

كلما قلنا : اكتفينا ،

بالذى قد كان ،

من وهم السرابْ

ومع التيه سرينا .

فى كهوف من ظلام وضباب

واستوى ليل وفجر ،

واستوى أمن وذعر ،

***

عادت الروح فشدتْنا إليها

بوثاق ، من حنين وولاء

وأتانا صوتُها عبر الخواء ،

ملؤه شجو ، ولوم وعتابْ ،

فاشرأبتْ نحوها أرواحُنا

وكأنا ما اغتربنا ،

وانسحبنا ، وانتهينا .

***

كلما قلنا : فرغنا ،

من معاناة جنون وصراعْ

وأكاذيب الأماني ،

ودعاء لا يُجابْ

وتمزقنا حطاماً

إثر ما ولّى وضاعْ ،

وغفونا ، أو غفت أشلاؤنا

بأكُفِّ الموج ، فى طىِّ العبابْ

واستوى بحر وبرٌّ

واستوى مد وجزر

***

ح من عمق الدياجى طيفها

يجمع الأشلاء من يمِّ الضياعْ

وكأنّا ما انحطمنا ،

وانسحقنا ، وانتهينا .

***

كلما قلنا ، جرعنا

كأسنا ، لم نبق قطره

وأسغنا كل ما سيط بها

من نقيع السم ، من صاب وحنظلْ

وتداوينا منها بها ،

عللاً نجرعها بعد نهلْ

واستوى صحوٌ وسُكر

واستوى حلو ومر

خايلتْنا فى دياجير الغلسْ

بروىِ النبع الإلهىِّ المقدسْ

وبيمناها تراءت كاْسُها

ذوب نور ونقاء ،

ورحيق لم يُدنَّسْ

وبها طافت على أبنائها

فى ثرى سينا ، على شط القناةْ

وسقتهم جرعة من ترياقها

عوذتهم برُقاها الطيباتْ

أن يسيغوا ما أسغنا من قذى

أو يطيقوا ما أطقنا من عذابْ

جددت فيهم خلايا خصبها

ورأت سحر صباها والشبابْ

وكأنّا ما هرِمنا ،

وعقمنا ، وانتهينا

فهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٩٣٠ / ٩٩

I.S.B.N 977-01-6418-6



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩
١٢٥ قرشاً
مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة